الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الجزائر

مذكرة تخرج لنيل شهادة ماجستير في العلوم الإسلامية
تخصص: لغة وحضارة إسلامية

المستعربون في الأندلس خلال عصري المرابطين والموحدين

من إعداد الطالبة:
غداوية نورة

بإشراف الأستاذ :
– د. نزاري عبد الصمد

السنة الجامعية:
2012 – 2013

منتدى فتكات
fatakat.com

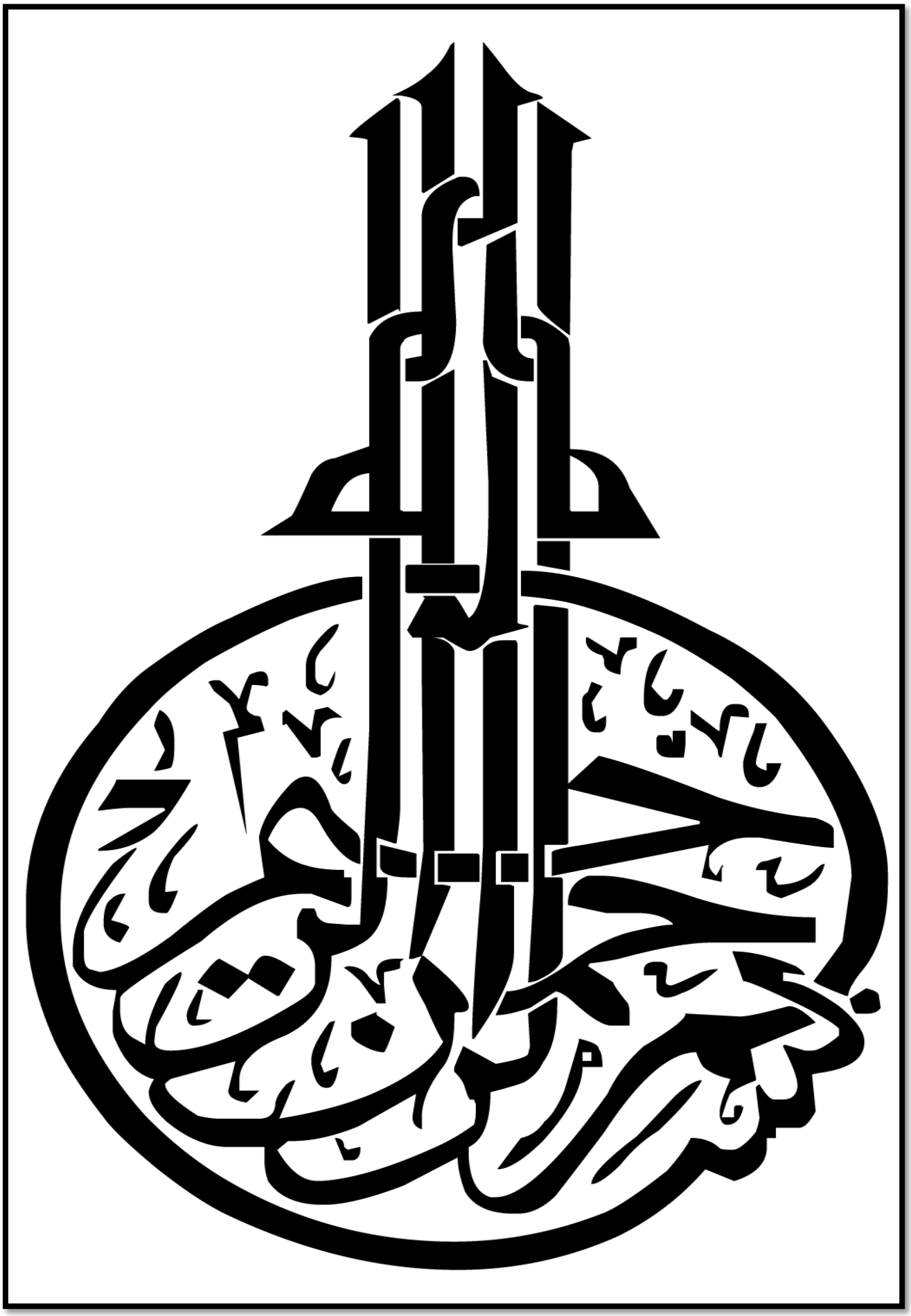

كلمـــــــة شـــــــــكر

عملا بقوله صلى الله عليه وسلم:« من لا يشكر الناس لا يشكر الله»

(أخرجه الترمذي وحسنه)

فإنني في هذا المقام أتقدم بخالص شكري وعرفاني لأستاذي الفاضل الدكتور مزاري عبد الصمد الذي تفضل بالإشراف علي وأعطاني من وقته وعلمه الكثير.

أسأل الله تعالى أن يجزيه خير الجزاء وأن يرفع درجاته في الدنيا والآخرة إنه سميع مجيب.

كما أتقدم بخالص شكري إلى الدكتور محمد الأمين بلغيث، الذي دفعني إلى إتمام هذه المذكرة المتواضعة.

أسأل الله تعالى أن يجزيه خير الجزاء،

و أن يرفع درجاته في الدنيا والآخرة.

إهـــــــــــداء

﴿واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا﴾

والدي العزيزين

إلى من حملتني وهنا ووضعتني وهنا والجنة تحت أقدامها

" أمي الحنونة "

حفظها الله ورعاها أهديها نجاحي.

إلى سندي في الدنيا وأسوتي في الحياة وسبب تفوقي

" أبي الغالي "

حفظه الله ورعاه أهديه نجاحي.

نـــــورة

مقدمة

باسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة على رسول الله أما بعد:

عرفت الأندلس تاريخا متميزا في كل مظاهر العيش صغيرها وكبيرها؛ فتحمَّل الأندلسيون على اختلاف أصولهم وعقائدهم مسؤوليات تدبير أمور الحكم، وتلاقوا في مجلس العلم معلمين ومتعلمين، وكتبوا فيما هو عام، يحدوهم حب العلم، ويسعون إلى نشر آثاره، أو فيما هو خاص، ينورون به عقول ذوي المعتقد كل في نحلته، ويهدونهم السبيل. وتنافسوا في سبل العيش في الأسواق، ونهضوا بشأن التجارة وزرعوا الأراضي، وغرسوا الجنان، وهذبوا البساتين وحفروا الآبار، ونظموا الري، ورفعوا البنيان، وتساكنوا وتجاوروا في نفس الرباع، وأحيانا في نفس الدور.

وباختصار، نسجوا نسجا حضاريا مختلف الألوان منسجم التركيبة... إنها مشاركة انمحت فيها الخصوصيات الدينية والعرقية، وتوارت فيها الأنانيات والعصبيات زمنا كان كافيا لبناء مجتمع يُعتبر بحق بما صنع في العلم والرجال المثال الذي يجب أن نضعه دوما نصب أعيننا"...

كما يعتبر تاريخ دولة الإسلام بالأندلس من أطول وأخصب دول الإسلام عمراً وعبرة وأبلغها عظة وأكثرها دروساً وفوائد فقد امتدت دولة الإسلام بالأندلس قرابة الثماني قرون مرت خلالها الأندلس بعدة مراحل وأطوار بين قوة وضعف ووحدة وتفرق، ولم يكن سقوط الأندلس بالشيء الذي حدث فجأة لطول عمر الدولة الأندلسية ولتقلبها من حال إلى حال ونستطيع أن نقسم حياة دولة الإسلام بالأندلس إلى عشرة مراحل كل مرحلة كان لها الأسباب الخاصة بها والتي امتد أثرها طوال

حياة الدولة المسلمة وكان لكل مرحلة سماتها وخصائصها والمحصلة النهائية لكل هذه المراحل سقوط الأندلس.

مرت الأندلس بفترة عصيبة تولى فيها الحكم عدداً من الخلفاء الأمويين يزيد عددهم على عدد كل من تولى الحكم منذ قيام الأندلس لوقتها وضاعت هيبة الخلافة وانقسمت البلاد مرة أخرى وبرزت العصبيات والقبليات المقيتة أكثر مما سبق وظهرت لأول مرة فكرة الاستعانة بنصارى أسبانيا الذين وجدوا في ذلك فرصة ذهبية في النيل من المسلمين، وبموت المعتمد بالله سنة 422هـ أعلن وزيره أبو محمد بن جهور انتهاء وسقوط الخلافة الأموية لعدم وجود من يستحقها وأنه سيحكم الدولة جماعة من الوزراء على نظام شبه جمهوري، وبانتهاء هذه الفترة انقسمت البلاد إلى دويلات صغيرة واستقل كل أمير بمقاطعته وأعلن نفسه ملكاً عليها، ودخلت الأندلس النفق المظلم الذي لم تخرج منه بعدها أبداً.

أظهرت الحالة المتردية بالغة السوء التي وصلت إليها الأندلس ومدى الفساد المستشري في أوصال الشعب الأندلسي خلال حكم ملوك الطوائف الفاسد أن إنقاذ الأندلس لن يأتي من أهلها خاصة من هذا الجيل المتميع المستهتر بأحكام الدين العاري من كل فضيلة وجاء سقوط مدينة طليطلة العريقة كصاعقة مدوية للشعب الأندلسي كله حكاماً ومحكومين فلقد استولى ملك قشتالة الصليبي ألفونسو السادس على طليطلة في 1 صفر 478هـ في ظل تخاذل وجبن وإحجام ملوك الطوائف عن مواجهته مما مهد السبيل للاستعانة بالمسلمين من الناحية الأخرى للبحر.

في نفس الفترة التي كانت تشهد فيها الأندلس أسوأ مراحلها وتحيي أفسد عصورها نشأت ببلاد المغرب دولة جديدة من قبائل البربر عرفت باسم المرابطين، وكانت كأي دولة جديدة في بدايتها قوية فتية لم تتلوث بعد بأنواع الترف والدعة والجور المفضي دائماً لهلاك الدول وكان أصل فكرة تجميع وقيام هذه الدولة الجهاد في سبيل الله ونشر الإسلام وكان يقودهم رجل توافرت فيه كل مقومات القائد الصالح وهو يوسف بن تاشفين وكانت الأنظار قد توجهت للمرابطين عقد سقوط طليطلة واضطر ملوك الطوائف تحت ضغط شعوبهم وخوفاً من انقضاض الصليبيين عليهم لأن يراسلوا يوسف بن تاشفين ليعبر بجيوشه البحر لإنقاذ الأندلس، وبالفعل عبر يوسف بن تاشفين بجيوشه الكبيرة ومعظمها من البربر وحقق انتصاراً هائلاً على الصليبيين في معركة الزلاقة 13رجب وهي المعركة التي أجلت سقوط الأندلس أربعة قرون.

ولم ينته أثر المسلمين وفضلهم على الإسبان بعد خروجهم منها بل مازالت بصماتهم في مجالات الحياة كافة شواهد أبدية على عظمتهم وبرز كثير من المستعربين أو النصارى المعاصرين أو الأندلس المسيحيين وغالبيتهم من المسيحيين الذين اختلطوا بالأندلس، وتبنوا بعض العادات الإسلامية وتعلموا اللغة العربية وظلوا في المناطق التي يحكمها العرب وعاشوا في بيوت لها مخطط البيوت العربية.

تعتبر حركة الاستعراب الاسبانية من أقدم أنواع الاستشراق في الغرب كنتيجة طبيعة حكم المسلمين الطويل لإسبانيا وكانت دراسات المستعربين الإسبان للمواضيع العربية أثر عمقا وتأثرا من دراسات المستشرقين الغربيين للعالمين العربي والإسلامي.

ولم يقتصر اهتمام الإسبان في دراسة الإسلام بل نرى الكثير من المستعربين الإسبان الذين سخروا وقتهم لتعلم اللغة العربية، من أجل أن يتاح لهم التعرف جيدا على حضارة العرب في اسبانيا وعلى تاريخ الإسلام، وليكون اتصالهم بهم اشد صلة ومعلوماتهم أكثر دقة.

يأتي في مقدمة هؤلاء المستعربين "أميليو غاريثا غوميز" الذي لعب دورا هاما في التعريف بالحضارة العربية الإسلامية في الأندلس من خلال أبحاثه ومحضراته المتنوعة.

ولأهمية هذا الموضوع في إبراز دور فئة غير مسلمة في الأندلس فقد اخترت أن يكون الموضوع المدروس:" المستعربون في الأندلس خلال عصري المرابطين والموحدين".

وهناك أسباب عديدة دفعتني إلى دراسة هذا الموضوع، وجعلتني اقبل عليه برغبة وشغف.

وأهم هذه الأسباب:

1. خلو المكتبة العربية من دراسة أكاديمية علمية شاملة، تغطي هذا الموضوع بالرغم من أهميته.
2. يهدف البحث إلى كشف الصورة الحقيقية للإنسان الأندلسي المسلم وتعايشه مع أنماط مختلفة.
3. يسدل البحث الستار على محطات البحث في تأريخ التسامح بين الأديان والشعوب بالأندلس (المسلمون، اليهود، النصارى المستعربون).

4.إظهار دور الإسلام في الحوار مع المخالفين ودعوتهم بالتي هي أحسن وذلك بجعل التسامح قاعدة والتعصب استثناء عبر ثلاث محطات من التاريخ الأندلسي وهي: تعايش مشترك وحرية المعتقد وثقافة متسامحة تقوم على الاختلاف والتنوع وتبرز التعايش المشترك.

وقد جاء هذا البحث في مقدمة وتمهيد وثلاثة فصول وخاتمة.

أما المقدمة، فقد تضمنت لمحة موجزة عن الموضوع، والأسباب التي دفعت الباحث لدراسته، واهم التساؤلات التي ستجيب عنها الدراسة، ثم تحليلا لأهم المصادر التي اعتمدت عليها.

وأما الفصل الأول فقد تناول تعريف المستعربين لغة واصطلاحا، وأوضاع الأندلس في عهد المرابطين والموحدين.

وقد بحث الفصل الثاني التركيبة السكانية والأحوال السياسية في الأندلس حيث تناولت فيه قدوم العرب إلى الأندلس ثم تعرضت لفئة البربر الذين دخلوا الأندلس إبان الفتح، كما تناولت مجموعات النصارى واليهود، ثم المولدون والصقالبة.

كما تناول الأحوال السياسية والاجتماعية للأندلس.

أما الفصل الثالث فقد كان بعنوان: موقف مستعربي الأندلس من الحكم الإسلامي وانعكاساتهم عليهم.

وقد انتهى البحث بخاتمة تضمنت أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة.

- **تحليل المصادر:**

من أجل إنجاز هذه الدراسة رجعت غلى عدد كبير من المصادر الإسلامية، التاريخية والأدبية، وإلى كتب التراجم، فوجدت فيها معلومات تتفاوت في درجة أهميتها بالنسبة لموضوع الدراسة، لكنها بصورة عامة معلومات قليلة، ولا تكفي لتغطية الموضوع من جميع جوانبه.

ولكي نستكمل الموضوع وحتى لا تكون الدراسة أحادية المصادر وتم الرجوع إلى مراجع عربية وإلى المراجع الحديثة، والموسوعات اليهودية التي اعتمدت على وثائق ومصادر إسبانية ويهودية غاية فلي الأهمية لم نتمكن من الوصول غليها.

وطبيعي أن تحتوي مصادر اليهود ومراجعهم على معلومات لم نجدها في المصادر الإسلامية.

وفيما يأتي تحليل لأهم المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها في هذه الدراسة.

أولا: المصادر

البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذارى المراكشـــي وهو عبارة عن تاريخ عام للأندلس والمغرب من الفتح إلى عصر المؤلف اتبع فيه منهج تسلسل الأحداث على أساس السنين.

لسان العرب، لأبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ـــ القاموس المحيط بإشراف محمد نعيم، والمعجم الوسيط أشرف عليه مجموعة من الباحثين.

المعجب في تلخيص أخبار المغرب، لعبد الواحد المراكشي.

الكامل في التاريخ، لإبن أثير، ونفح الطيب، للمقري وتاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ورسائل ابن حزم، ووثائق في أحكام قضاء أهل الذمة، لإبن سهيل.

ثانيا: المراجع

دولة الإسلام في الأندلس لمحمد عبد الله عنان.

المسلمون في المغرب والأندلس، د. محمد محمد زيتون.

تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة، د. السيد عبد العزيز سالم.

الحضارة العربية الإسلامية، سلمى خضراء الجيوسي.

الجوانب الإيجابية والسلبية في الزواج المختلط في الأندلس، سحر السيد عبد العزيز سالم.

مكونات المجتمع الأندلسي، أحمد شحلان.

تاريخ الإسلام، حسن إبراهيم حسن.

العلاقات بين الأندلس الإسلامية واسبانيا النصرانية، رجب محمد عبد الحليم.

الفصل الأول: الأندلس في عهد المرابطين والموحدين

المبحث الأول: الأندلس في عهد المرابطين والموحدين

- المطلب الأول: الأندلس في عهد المرابطين
- المطلب الثاني: الأندلس في عهد الموحدين
- المطلب الثالث: التركيبة السكانية للأندلس

☙ المبحث الأول: الأندلس في عهد المرابطين والموحدين

في الفترة التي كانت تشهد فيها الأندلس أسوأ مراحلها وتحيي أفسد عصورها نشأت ببلاد المغرب دولة جديدة من قبائل البربر عرفت باسم المرابطين، وكانت كأي دولة جديدة في بدايتها قوية فتية لم تتلوث بعد بأنواع الترف والدعة والجور المفضي دائماً لهلاك الدول وكان أصل فكرة تجميع وقيام هذه الدولة الجهاد في سبيل الله ونشر الإسلام وكان يقودهم رجل توافرت فيه كل مقومات القائد الصالح وهو يوسف بن تاشفين وكانت الأنظار قد توجهت للمرابطين عقد سقوط طليطلة واضطر ملوك الطوائف تحت ضغط شعوبهم وخوفاً من انقضاض الصليبيين عليهم لأن يراسلوا يوسف بن تاشفين ليعبر بجيوشه البحر لإنقاذ الأندلس، وبالفعل عبر يوسف بن تاشفين بجيوشه الكبيرة ومعظمها من البربر وحقق انتصاراً هائلاً على الصليبيين في معركة الزلاقة 13رجب وهي المعركة التي أجلت سقوط الأندلس أربعة قرون .

استطاع الموحدون إسقاط دولة المرابطين بعدما دب الضعف في جسدها الكبير، والموحدون هم أتباع حركة محمد بن تومرت الذي ادعى المهدية، وقد سموا أنفسهم بالموحدين لاعتقادهم أنهم هم المؤمنين حقاً الذي يوحدون الله عز وجل التوحيد الصحيح وأن ما سواهم هو مشبه وضال ومبتدع وعقيدتهم هي خليط من الاعتزال والجهمية ونفي الصفات مع فشو البدع المنكرة عندهم لذلك فقد كانوا أضل الناس في باب العقائد ولكنهم ركبوا أسباب النجاح والتمكين والقوة فكان لهم ما سعوا له لحكمة يعلمها الله عز وجل وحده.

لم يكن أهل الأندلس وهم على عقيدة السلف الصالح ليتقبلوا هذه العقيدة المخترعة بسهولة فمكث الموحدون معظم وقتهم بالأندلس في قتال أتباع المرابطين وإرغام المخالفين لهم على قبول عقيدتهم المخترعة ولكنهم مع ذلك انتصروا على الصليبيين في معركة الآراك التي أعادت للأذهان ذكرى الزلاقة وذلك سنة 591هـ.

ولكن أصحاب العقيدة الفاسدة مهما علت رايتهم وقويت شوكتهم فإن زوالهم سريع وهلاكهم قريب لذلك انتصر الصليبيون عليهم في معركة كانت قاصمة الظهر لهم وهي معركة العقاب سنة 609هـ وانتهارت قواعد الموحدين الواحدة تلو الأخرى سريعاً وانفرط العقد بالمغرب والأندلس واقتتل أمراء الدولة فيما بينهم واستعانوا بالصليبيين على بعضهم البعض حتى بلغ الحال ببعضهم لأن يرتد عن الإسلام ويتنصر من أجل الدنيا الفانية.

➢ المطلب الأول: الأندلس في عهد المرابطين

ظل الصراع بين المسلمين والنصارى قائما بعد الزلاقة، بل لقد كثر عيث النصارى في بلاد المسلمين، وتخريبهم لها، ولم يستطع حكم الطوائف فعل شيء، بل وصلت الأحوال إلى أن سقطت بلنسية وهي حاضرة الشرق الأندلسي ومن أبرز حواضر الأندلس كلها في – في يد النصارى.

لم تنته الصراعات بين ملوك الطوائف وما نفذوا وصية "يوسف بن تاشفين" لهم بالاتحاد فاستغاث الناس بأمير المسلمين "يوسف بن تاشفين" للمرة الثانية، وكذلك فعل "المعتمد بن عباد" – أيضا، فمن أجل ذلك كان الجواز الثاني لـ "يوسف بن تاشفين" إلى أرض الأندلس.

ويتكرر ما حدث في العبور الأول إذ يقوم المرابطون بنصرة الأندلسيين وهزيمة النصارى في أكثر من موقعة إلا أنه في أثناء حصار حصن لبيط في سنة 481 هـ ـــــ 1088م، رأى من خداع أمراء الطوائف وشهد عندئذ من تمردهم ونفاقهم، وجنوحهم إلى مما لأن النصارى ما أغضبه وأحفظه عليهم، ثم تكررت هذه الأحوال للمرة الثالثة، فعبر "ابن تاشفين" مرة ثالثة إلى الأندلس عام 483 هـ ـــــ 1090 م. فجهز جيوشه ودخل إلى الأندلس.

والواقع يقول أن "يوسف بن تاشفين" لم يطمع في الأندلس، وتردد كثيرا قبل العبور، وعف عن الغنائم بعد ذلك وتركها للمتعمد ولأمراء الأندلس، ولم يأخذ منها شيئا ثم يعود في الجواز الثاني بسبب اختلافات ملوك الطوائف، وتحالف بعضهم مع عدو الإسلام، وكان الجواز الثالث لوضع حد لمهزلة ملوك الطوائف لقد ان ـــــ وباسم الإسلام ـــــ لهذه الدويلات الضعيفة المتناحرة المتحالف بعضها مع الأعداء أن تنتهي.

لم يكن دخول "يوسف بن تاشفين" الأندلس أمرا سهلا فقد حاربه الأمراء هناك بما فيهم "المعتمد بن عباد" ذلك الرجل الذي لم يجد العزة إلا تحت راية "يوسف بن تاشفين" ـ رحمه الله ـ قبل وبعد الزلاقة، قام "المعتمد على الله" على محاربته وأبى له أن يحارب مثله.

استمرت نار الحرب بين المرابطين وملوك الطوائف، وانتهت بضم كل ممالك الأندلس إلى دولة المرابطين، واستطاع أن يضمها إلى بلاد المسلمين، وقد أصبح "يوسف بن تاشفين" الآن أميرا على

دولة تملك من شمال الأندلس وبالقرب من فرنســـا وحتى وســـط إفريقيا، دولة واحدة اسمها دولة المرابطين.

ولقد ظل هذا الشيخ الكبير يحكم حتى سنة (500 هـــ، 1106م)، وكان قد بلغ من الكبر عُتَيًّا، وتوفي – رحمه الله–بعد حياة حافلة بالجهاد، وقد وفى تمام المائة[1]، منها ســبع وأربعون ســنة في الحكم، وكان تمام ســتين ســنة على ميلاد دولة المرابطين، تلك التي أصــبحت من أقوى دول العالم في ذلك الزمان.

حاول المرابطون بعد دخولهم الأندلس تحرير الأراضي الأندلسية، التي أخذت من المسلمين على مدار الســنوات الســابقة، فحاربوا في أكثر من جهة، حتى اقتربت حدود دولة المرابطين من فرنســا[2]، كما حاولوا كثيرا تحرير طليطلة لكنهم فشـــلوا في هذا الأمر، وإن كانو قد أخذوا معظم القرى والمدن التي حولها.

لكن بعد موت "يوسف بن تاشفين" بعام واحد، وفي سنة (501هـ ـ 1107م) وبعدما يقرب من اثنتي وعشـرين سـنة من الزلاقة، تدور واحدة من أضـخم المواقع بين لمسـلمين وبين النصـارى وهي التي سميت في التاريخ بموقعة "أقليش"، وقد تولى القيادة فيها على المســـلمين "تميم بن يوســـف بن تاشفين" وكان هذا في عهد "علي بن يوسف بن تاشفين" الذي تولى دولة المرابطين خلفا لأبيه، وتولى

[1] – أنظر: ابن عذارى: البيان المغرب، 54/4، وابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 156.

[2] – أنظر: ابن عذارى: البيان المغرب، 54/4، وابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 160.

القيادة على الصليبيين "سانشوين ألفونسو السادس"، وانتصر المسلمون أيضا ـانتصارا ساحقا في هذه الموقعة، وقتل من النصارى ثلاثة وعشرون ألفا من بينهم "سانشوين ألفونسو" وقائد جيش النصارى، وقيل عن هذه المعركة بأنها الزلاقة الثانية[1].

وتوالت انتصارات المسلمين بعد هذه المعركة ففي عام (509 هـ، 1115م) استطاع المسلمون أن يفتحوا جزر البليار، تلك التي كانت قد سـقطت من جديد في عهد ملوك الطوائف، وقد أصـبح المسلمون يسيطرون على جزء كبير من أراضي الأندلس تحت اسم "دولة المرابطين".[2]

ولقد مرت سياسة المرابطين في الأندلس بمراحل ثلاث:

1. مرحلة التدخل من أجل الجهاد وإنقاذ المسـلمين، وقد انتهت بانسـحاب المرابطين بمجرد انتصار الزلاقة.

2.مرحلة الحذر من ملوك الطوائف، بعد أن ظل وضـعهم وضـع التنافر والتحاسـد والتباغض بينهم، ولم يفكروا في الاندماج في دولة واحدة، بل فضل بعضهم التقرب إلى الأعداء للكيد بالآخرين.

3.مرحلة ضم الأندلس إلى المغرب، فوضعوا حدا لمهزلة ملوك الطوائف.[3]

وفي تحليل موضـوعي لهذه الأحداث نعود بالتاريخ إلى بداية نشـأة دولة المرابطين وقيامها فمنذ عام (440 هـ ـــ 1048م) ولمدة سبعين عاما تقريبا، وحتى عام (509 هـ ـــ 1115 م) حيث

[1]– ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ج 04، ص 54.

[2] – انظر: ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 162.

[3] – محمد علي الصلابي، دولة المرابطين، ص 229.

الانتصـــارات المتتالية، وحيث العلو والارتفاع، وحيث الأموال والغنائم، والدنيا التي فتحت على المسلمين، والتي وصلوا فيها إلى درجة عالية من العز والسلطان والتمكين، فما المتوقع بعد ذلك، وما الأحداث الطبيعية التي من الممكن أن تحدث.

لا شك أن الشيء الطبيعي والمتوقع حدوثه هو حصول انكسار من جديد للمسلمين، فكانت هناك شواهد بينة لانكسار وتراجع دولة المرابطين كما كانت عليه من قبل، وبذلك نستطيع أن نجملها فيما يلي:

1.فتنة الدنيا وإن ظل أمر الجهاد قائما بالرغم من عدم توقف الجهاد، وبالرغم من صـــولات وجولات "علي بن يوسـف بن تاشـفين"، والتي كانت له مع النصـارى وفي أكثر من موقعة، إلا أن المرابطين كانوا قد فتنوا بالدنيا، وهو يعد شيئا غريبا جدا، ويعد سبب كبير ارتكبه المسلمون في دولة المرابطين، كذلك انشغل المرابطون في أرض الأندلس وفي بلاد المغرب وما حولها من البلاد، بالجهاد في سبيل الله عن إدارة الحكم وعن السياسة داخل البلاد ـــ شغلوا بالأمور الخارجية عن الأمور، والإسلام بطبيعته دين متوازن، ونظام شـــامل لا يغلب جانب على جانب، وخير مثال على ذلك تلك الدولة المتوازنة التي أقامها "عبد الرحمن الناصر" ـ رحمه الله ـــ في نواحي العلم والجهاد، والاقتصاد والقانون، والعمران والعبادة وكل شيء، حيث الدولة التي تسد حاجات الروح والجسد، فسادت وتمكنت وظلت حينا من الدهر.

ومثلها أيضا ـــــ كانت بداية دولة المرابطين وإقامة الجماعة المتوازنة على يد الشيخ "عبد الله بن ياســين"، تلك التي اهتم في قيامها بكل جوانب الحياة وعوامل ومقومات الدولة المتكاملة، التي تعطي كل جانب من مقوماتها قدرا مناســبا من الجهد والوقت والعمل فتعلموا أن يكونوا فرســانا مجاهدين، ورهبانا عابدين، كما تعلموا أن يكونوا سياسيين بارعين، ومتعاونين على منهج صحيح من الإسلام وأصوله.

2. كثرة الذنوب والمعاصي في دولة المرابطين سواء أكان ذلك في الأندلس أو في أرض المغرب، وكثرة الذنوب كان أمرا طبيعيا خاصــة بعد أن فتحت البلاد وكثرت الأموال عليهم وكثرت الأموال في أيديهم، فتحركت هذه النفوس الضــعيفة ناحية الذنوب وبدأت ترتكب من الذنوب والكبائر ألوانا وأشكالا.

إن كثرة الذنوب أمر طبيعي ومتوقع كنتيجة مباشــرة لكثرة الأموال لكن أين العلماء الكثيرون المنتشرون في بلاد الأندلس وفي بلاد المغرب العربي في ذلك الوقت؟

كيف يفتن الناس بالدنيا وراية الجهاد خفاقة، وكيف تكثر الذنوب رغم وجود العلماء الأجلاء.

واقع الأمر أن العلماء هم الذين يقع على عاتقهم العبء الأكبر من هذا التدني والانحدار إذ نراهم وقد انشــغلوا بفرعيات الأمور وأســاســياتها، لقد طرقوا أمورا وتركوا أمورا أولى وأهم منها أخذوا يؤلفون المؤلفات، ويعقدون النظرات ويقتســمون التقســيمات، في أمور لا ينبني عليها كثيرا عمل ولا كثير جدوى.

فمن النتائج التي ترتبت على تعمق العلماء بالفروع دون الأصول:

أ. جدال عظيم عقيم بين العلماء والعامة، وذلك أن العلماء لم يفهموا أو لم يستطيعوا أن يتفهموا حاجة العامة، كما لم تعرف العامة ما يتنطع بالعلماء.

ب. عزلة العلماء عن مجتمعاتهم، وذلك باتجاه العلماء لدقائق الأمور من الفروع لم يعد يشغلهم حال مجتمعاتهم ولم يعودوا هم يعرفون شيئا عما يدور فيها وما يحل بها من مصائب وذنوب، فتوسعت الهوة كثيرا بينهم وبين مجتمعاتهم وحدثت عزلة خطيرة لهم في العهد الأخير للمرابطين، فكانت الخمور تباع وتشترى بل وتصنع رفي البلاد ويتكلم أحد، وكانت الضرائب الباهضة تفرض على الناس غير الزكاة ويغير وجه حق. ولا يتكلم من العلماء أحد، وكانت النساء تخرج مسافرات بلا حجاب والعلماء لاهون بالحديث عن المرابة والمعطلة، وغيرها من أمور الجدال العميقة والفرقة المقيتة، ويعتقدون أن مثل هذه الأمور هي التي يجب أن يشغل بها المسلمين وغيرها هي الأقل أهمية من وجهة نظرهم.[1]

ت. أزمة اقتصادية حادة، فمن بين شواهد الانكسار الأخرى في نهاية المرابطين، وبعد فتنة الدنيا والمال، وغياب الفهم الصحيح لتعاليم الإسلام وكثرة الذنوب وجمود الفكر عند العلماء وانعزالهم عن المجتمع، كان فوق كل هذه الأمور أن حدثت أزمة اقتصادية حادة في دولة المرابطين، ففي سنة 532 هـ وقع السيل العظيم بطنجة، حمل الديار والجدر، ومات فيه خلق عظيم من الناس والدواب[2] وكذلك فتك الجراد القحول بحقول الأندلس من سنة 526 هـ حتى سنة 531 هـ فاشتدت المجاعة

[1] – عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص 236 وما يليها.

[2] – ابن عذارى: نفس المصدر، ص 96.

وانتشر الوباء في سنة 526 هـ بأهل قرطبة فكثر الموتى وبلغ مد القمح 15 دينار، وكان قد وقع قبل ذلك سنة 525 هـــ حريق ضخم في سوق الكتانين بقرطبة، واتصالها بسوق البز، كذلك حدث في سنة 535 هـ حريق ضخم آخر في سوق مدينة فاس فاحترقت سوق الثياب والقراقين وغير ذلك من الأسواق إلا البقالون، وأن ذلك كان في أول الليل فتلفت أموال جليلة وافتقر فيه خلق كثير.

وبعض المصادر تتحدث -أيضا-عن القحط الذي حل بالبلاد، فيبست الأرض وجف الزرع وهلكت الدواب.[1]

قد يرى البعض أن هذا من قبيل المصادفة البحتة والعجيبة في الوقت نفسه، لكنها والله ليست مصادفة، بل هي في كتاب الله ومن سننه الثوابت، يقول تعالى في كتابه الكريم:﴿ **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (96)**﴾[2].

و هذا كلام نوح عليه السلام في حديثه لقومه يقول:﴿ **فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (10) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (11) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا(12) مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (13)**﴾[3].

[1] - محمد علي الصلابي، دولة المرابطين، ص 229.

[2] - الأعراف: 96.

[3] - نوح: 10، 13.

فالله يبتلي المؤمنين دائما بالقحط وبالأزمات الاقتصادية الحادة عندما يبتعدون عن طريقه، وعن نهجه القويم الذي رسمه لهم، ومن هنا فلو لوحظ تدهور في الحالة الاقتصـــادية لأحد البلدان أو المجتمعات، وبدأت الأموال تقل في أيدي الناس، وبدأوا يعملون لساعات وساعات ولا يحصل لهم ما يكفي لســد رمقهم، أو ما يكفي لعيشــهم عيشــة كريمة، فاعلم أن هناك خللا في العلاقة بين العباد وربهم، وأن هناك ابتعادا عن منهجية وطريقه المســتقيم، إذ لو كانوا يطيعونه لبارك لهم في أقواتهم وأرزاقهم.

- **المطلب الثاني: الأندلس في عهد الموحدين**

إن سقوط دولة المرابطون وقيام دولة الموحدين في عام 541 هـــ و1146 م ومقتل ما يربوا على الثمانين ألف مسلم في بلاد الأندلس، نتيجة الحروب بينها كان لهذه الأحداث العظام تداعيات خطيرة على كل بلاد المغرب العربي وبلاد الأندلس فكان كما يلي:

سقوط ألمرية:

بعد قيام دولة الموحدين بعام واحد وفي ســـنة 542 هـ و1147م ســـقطت ألمرية في أيدي النصارى وهي تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط في جنوب الأندلس، أي هي بعيدة جدا عن ممالك النصارى.

لكنها سقطت عن طريق البحر بمساعدة فرنسا وفي ألمرية استشهد آلاف من المسلمين وسبيت أكثر من أربعة عشر ألف فتاة مسلمة[1] وفي هذا يقول المقري تلمساني "وأحصي عدد من سبي من أكبارها فكان أربعة عشرة ألفا"[2].

وبعد ذلك بعام واحد وفي سنة 543 هـ 1148م سقطت طرطوشة ثم لاردة في أيدي النصارى، وهما في مملكة سرقسطة التي تقع في الشمال الشرقي، والتي كان قد حررها المرابطون قبل ذلك[3].

وفي العام نفسه توسعت مملكة البرتغال في الجنوب وكانت من أشد الممالك ضراوة وحرب على المسلمين[4].

وفي السنة ذاتها بدأ النصارى يتخطون حدود الأندلس ويهاجمون بلاد المغرب العربي فاحتلت تونس من قبل النصارى وهي خارج بلاد الأندلس[5].

ولقد كانت مثل هذه التداعيات شيئا متوقعا نتيجة الفتنة الكبيرة، والحروب التي دارت بين المسلمين في بلاد المغرب العربي.

---

[1] – ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 09، ص 347.

[2]– المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطب، ص 463.

[3] – انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 09، ص 357.

[4] – محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، العصر الثالث، عصر المرابطين والموحدين، ط 02، 411 هـ 1990م، ص 257.

[5] –ابن الأثير، نفس المصدر، ج 09، ص 350.

بعد تساقط المرابطين في المغرب أمام الموحدين، تبعهم الموحدون في الأندلس، واستولوا على المدن الأندلسية والتي كانت في يد المرابطين وفي سنة 543 هـ 1148 م وبعد استيلاء الموحدين على الكثير من البلاد الأندلسية، قدم القاضي "ابن العربي" وبايع " عبد المؤمن بن علي"، وطلب النجدة لأهل الأندلس، وإن مبايعة القاضي "ابن العربي" " لعبد المؤمن بن علي "تعطي إشارة إلى أن "عبد المؤمن بن علي" لم يكن يعتقد أو يدعوا إلى أفكار ضالة كما في الدعوة إلى العصمة والمهدية، أو غيرها ممن كان يدين به "محمد بن تومرت" وبعض من أتباعه[1].

قبل "عبد المؤمن بن علي" الدعوى من القاضي "ابن العربي" وجهز جيوشه وانطلق إلى بلاد الأندلس، وهناك بدأ يحارب القوات الصليبية حتى ضم معظم بلاد الأندلس الإسلامية التي كانت في أملاك المرابطين إلى دولة الموحدين، وكان لمن قاتله بعض أنصار دولة المرابطين، إلا أنه قاتلهم وانتصر عليهم وذلك سنة 545 هـ 1150م[2].

وفي سنة 525 هـ 1157م[3] استطاع أن يعيد المالية، وفيلا سنة 555 هـ 1160 م استعاد تونس من يد النصارى – ولأول مرة–استطاع أن يضم ليبيا إلى دولة الموحدين، وهي لم تكن ضمن حدود دولة المرابطين[4].

[1] – الحلل الموشية، ص 147.

[2] – ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 265.

[3] – ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 9/ 416.

[4] – ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، 237/6.

وفي سنة 613 هـ و1217 م وبعد موقعة العقاب بأربع سنوات، ونظرا لتردي الأوضاع في بلاد المغرب العربي وتولي "المستنصر بالله" أمور الحكم، وهو بعد طفل لم يبلغ الرشد، ظهرت حركة جديدة من قبيلة زناتة في بلاد المغرب استقلت عنهم دولة الموحدين، وأنشأت دولة سنية هي دولة بني مرين، والتي سيكون لها شأن كبير فيما بعد في بلاد الأندلس[1].

أما سنة 626هـ سقطت جزيرة ميورقة أكبر وأفضل جزر البليار، وبعد قليل اتبعها سقوط بياسة وهي صغرى جزر البليار، وبقيت الجزيرة الوسطى (جزيرة منورقة) دهرا تحت حكم المسلمين لكن تحت طاعة النصارى وفي حكمهم.

وفي العام التالي 627 هـ استقل بنو حفص بتونس، انفصلوا بها عن دولة الموحدين[2].

وقد دار صراع شديد على السلطة بعد وفاة المستنصر بالله، حيث لم يكن قد استخلف بعد فتولى عم أبيه "عبد الواحد" من بعده إلا أنه خلع وقتل، ثم تولى من بعده "عبد الله العادل" وعلى هذا الحال ضل الصراع وأصبح الرجل يتولى الحكم مدة أربع أو خمس سنوات فقط ثم يخلع أو يقتل ويأتي غيره وغيره، حتى صارت الدولة نحو هاوية سحيقة.

[1] – نفس المصدر: ص 251.

[2] – حتى سقطت سنة 686 هـ.

وفي سنة 625 هـــ و1228 م استقل رجع يسمى "ابن هود" بشرق وجنوب الأندلس وكان كما يصفه المؤرخون مفرطا في الجهل ضعيف الرأي لم ينصر له على النصارى جيش[1].

وفي سنة 633 هـــ 1236 م حدث حادث خطير ومروع، إنه حادث سقوط قرطبة حاضرة الإســلام[2]، ســقطت قرطبة التي أفاضــت على العالم أجمع خيرًا وبركة، وعلمًا ونورًا، ســقطت قرطبة صاحبة ثلاثة آلاف مسجد، وصاحبة ثلاثة عشر ألف دار، سقطت قرطبة عاصمة الخلافة لأكثر من خمسمائة عام، سقطت قرطبة صاحبة أكبر مسجد في العالم، سقطت جوهرة العالم قرطبة.

سقطت قرطبة في 23 من شهر شوال لسنة 633هـــ. سقطت وفي يوم سقوط قرطبة تحوَّل مسجدها الجامع الكبير إلى كنيسة، وما زال كنيسة إلى اليوم.

بعد سقوط قرطبة وفي سنة (635هـــ-1237م) استقلَّ بنو الأحمر بغرناطة بعد موت ابن هود في السنة نفسها.

وفي سنة (636هـــ-1237م) وبعد استقلال ابن الأحمر بغرناطة بسنة واحدة، وبعد حصار دام خمس سنوات متصلة سقطت بلنسية على يد ملك أراجون بمساعدة فرنسا، وكان حصارًا شديدًا

[1] – انظر ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 278، والمقري: نفح الطيب، 215/1، 464/4.

[2] – الحميري: الروض المعطار، ص 459، والمقري: نفح الطيب، 448/1.

كاد الناس أن يهلكوا جوعًا، وكان خلاله عدَّة مواقع؛ أشهرها موقعة أنيشة سنة (634هـ-1237م) التي هلك فيها الكثير من المسلمين من بينهم الكثير من العلماء.

وفي سنة (641هـ-1243م) سقطت دانية بالقرب من بلنسية، وفي سنة (643هـ-1245م) سـقطت جيان[1]، وهكذا لم يبقَ في بلاد الأندلس إلاَّ ولايتان فقط؛ ولاية غرناطة في الجنوب الشـرقي من البلاد، وولاية إشبيلية في الجنوب الغربي، تمثلان حوالي ربع بلاد الأندلس[2].

هذا مع الأخذ في الاعتبار أن كل ولايات إفريقيا قد اسـتقلَّت عن دولة الموحدين، فسـقطت بذلك الدولة العظيمة المهيبة المتسعة البلاد المترامية الأطراف.

قد يُفاجأ البعض ويتعجَّب لهول هذا السـقوط المريع لهذا الكيان الكبير بهذه الصـورة السـريعة المفاجئة، فيسـعى للبحث عن علله وأسـبابه، وحقيقةُ الأمر أن هذا السـقوط لم يكن مفاجئًا؛ فدولة الموحدين كانت تحمل في طياتها بذور الضعف وعوامل الانهيار؛ وكانت كثيرة؛ نذكر منها ما يلي:

1. تعاملها بالظلم مع دولة المرابطين، وقتلها الآلاف ممن لا يستحقُّون القتل؛ وإن طريق الدم لا يمكن أبدًا أن يُثمر عدلاً، يقول ابن تيمية :"إن الله يُقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يُقيم الظالمة وإن كانت مسلمة"[3].

[1] – محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، 468/6.

[2] – المقري، نفح الطيب، ص 206.

[3] – ابن تيمية: مجموع الفتاوى، 146.

إن عاقبة الظلم وخيمة، وربما تتأخَّر عقوبة الظلم؛ لكنها -بلا شـــكٍّ- تقع على الظالم؛ فالله تعالى يُمْهِلُ ولا يُهْمِل، وقد أســـرف الموحدون كثيرًا في إراقة دماء مَنْ خالفهم من المســـلمين، بل في ســـفك دماء مَنْ يشـــكُّون في ولائه لهم ممن كانوا معهم -كما رأينا في أمر التمييز الذي قام به ابن تومرت قبل وقعة البحيرة أو البستان، التي عجَّل الله لهم العقاب فيها وقتل منهم الكثير، فقد جعل ابن تومرت الأهل يقتلون أبناءهم، بعدما أقنعهم أنهم من أهل النار، وذلك بحيلة ماكرة شـــاركه فيها أحد الخبثاء ممَّنْ هو على شـاكلته -وهذا أمر في غاية الخطورة- لقد حذَّر النبي كثيرًا من العداء بين المسـلم وأخيه المسـلم، ومن التدابر والتحاسـد والتناجش والتباغض، روى مسـلم في صـحيحه بسـنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**تَحَاسَدُوا وَلاَ تَنَاجَشُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا وَلاَ تَدَابَرُوا، وَلاَ يَبِعْ بَعْضُـكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا، الْمُسْـلِمُ أَخُو الْمُسْـلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يَخْذُلُهُ، وَلاَ يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا -وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ -بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ**"[1].

2.العقائد الفاســـدة التي أدخلها ابن تومرت على منهج أهل الســـنة، وبالرغم من أن المأمون قاومها وأبطلها، إلاَّ أنَّ أشياخ الموحدين ظلُّوا يعتقدون في عصمة محمد بن تومرت وفي صدق أقواله، حتى ذلك العهد؛ وهو ما جعل هذا الإصلاح كأنه ترقيع في ثوب مهلهل عقائديًّا.

[1] – مسلم: كتاب الصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله، ص 2564.

وهنـاك أمر آخر لا يقـل خطورة عن هـذا الأمر، ألا وهو تكفير المرابطين، وقـد بنى ابن تومرت على هذه الفكرة جواز قتلهم وحرقهم، وسـبي نسـائهم، وهدم دولتهم، وتقويض بنيانها من القواعد.

إن تكفير المسلم قضية في منتهى الخطورة، لا ينبغي لعاقلٍ بحال من الأحوال أن يقع فيها، ففي البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "**إِذَا قَالَ الرَّجُلُ لأَخِيهِ: يَا كَافِرُ .فَقَدْ بَاءَ بِهِ أَحَدُهُمَا .«وعند مسلم» :أَيُّمَا امْرِئٍ قَالَ لأَخِيهِ: يَا كَافِرُ .فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا، إِنْ كَانَ كَمَا قَالَ، وَإِلاَّ رَجَعَتْ عَلَيْهِ**"[1].

وقال أبو حامد الغزالي :"والذي ينبغي أن يميل المسـلم إليه الاحتراز من التكفير ما وجد إليه سـبيلاً؛ فإن اسـتباحة الدماء والأموال من المصـلّين إلى القبلة، المصـرّحين بقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله. خطأ، والخطأ في ترك ألف كافر في الحياة أهون من الخطأ في سفك محجمة (قارورة) من دم مسلم".

وقال ابن تيمية: "مَنْ ثبت إيمانه بيقين لم يزل عنه بالشـكِّ، بل لا يزول إلاَّ بعد إقامة الحجة، وإزالة الشبهة"[2].

[1] – مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان حال إيمان من قال لأخيه المسلم، ص 60.

[2] – ابن تيمية: الفتاوى، ص 466.

3.الثورات الداخلية

كان من عوامل سقوط دولة الموحدين –أيضًا–الثورات الداخلية الكثيرة التي قامت داخل دولة الموحدين، وكان أشهرها ثورة بني غانية، والتي كانت في جزر البليار، وفي تونس.

4.الإعداد الجيد من قِبَلِ النصارى في مقابل الإعداد غير المدروس من قِبَل الناصر لدين الله ومَنْ تبعه بعد ذلك.

5.انفتاح الدنيا على دولة الموحدين، وكثرة الأموال في أيديهم، وهذا ما أدى إلى الترف والبذخ الشديد ثم التصارع على الحُكم.

6.بطانة السوء المتمثِّلة في أبي سعيد بن جامع وزير الناصر لدين الله ومَنْ كان على شاكلته بعد ذلك.

ويُعَلِّق على ذلك الدكتور شـــوقي أبو خليل بقوله: «لقد كان الناصـــر ألعوبة في يد وزيره ابن جامع، الذي لم يكن مسئولاً عن هزيمة العقاب فقط، بل عن مصير الموحدين بعد الناصر أيضًا، لقد وضع ابن جامع الأسباب القوية التي أدَّت إلى تصدُّع سلطان الموحدين من أساسه.

لقد كُتب لأســرة ابن جامع التي تولَّى كثير منها الوزارة، وعلى رأســها أبو ســعيد بن جامع أن تُؤَدِّي أخطر دور في تحطيم دولة الموحدين، بمشاركة الأعراب البدو، وأشياخ الموحدين.

لقد تصـرف ابن جامع –الذي يمثِّل بطانة السـوء –بدولة الموحدين، فكان له أثره الخطير، ليس في ميدان السياسية الداخلية والخارجية للدولة فحسب، بل على وجود دولة الموحدين نفسه.

7.إهمال الشـورى من قِبَلِ الناصـر لدين الله ومَنْ بعده من الأمراء، وإنها لمخالفة صـريحة للقرآن الكريم؛ فالله عز وجل يقول: ﴿ **وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ** ﴾[1].

وقال الله تعالى في صـفات المؤمنين: ﴿**وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُـورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ**﴾[2].

قال الحافظ ابن كثير– رحمه الله–في تفسيره: لا يُبرمون أمرًا حتى يتشاوروا فيه؛ ليتساعدوا بآرائهم في مثل الحروب، وما جرى مجراها[3].

فهذه العوامل وغيرها اجتمعت لتُسْـقِط هذا الكيان الكبير، والذي لم يبقَ منه في بلاد الأندلس إلاَّ ولايتان فقط؛ هما غرناطة وإشبيلية، ومع ذلك ظلَّ الإسلام في بلاد الأندلس لأكثر من 250 سنة من هذا السقوط المروّع لدولة الموحدين!

[1]– آل عمران: 159.

[2] –الشورى: 38.

[3] –ابن الكثير، تفسير القرآن العظيم، ص 221.

➢ المطلب الثالث: التركيبة السكانية للأندلس

كان المجتمع الأندلسي يتألف من مجموعة من العناصر البشرية التي اختلفت أصولها وعقائدها وثقافتها، فقد كان فيه أهل البلاد الأصليون، وفيه الوافدون من عرب وبربر وموالي، وفيه المماليك المجلوبون من بلدان عديدة، وقد امتزجت هذه العناصر فيما بينها، لتشكل في نهاية الأمر المجتمع الأندلسي أو القومية الأندلسية بكل خصائصها ومميزاتها التي عرفت بها خلال الحكم الإسلامي للبلاد، وكان لكل عنصر من العناصر السكانية للمجتمع الأندلسي أثر كبير في تشكيل الحياة الاجتماعية التي مرت بها الدولة الإسلامية في الأندلس عبر عصورها المختلفة، وكان من أهم هذه العناصر:

أولا: المسلمون

أ– العنصر العربي: تشكل العنصر العربي أحد أهم سكان الأندلس، بل هم المسيطرون عليها، كان منهم القواد وأمراء والخلفاء، وقد شارك العرب في عملية الفتح الإسلامي للأندلس مع "طارق بن زياد"، و"موسى بن نصير"[1]، وكان عددهم قليلا في أول الأمر، وكان دخولهم على شكل موجات متصلة حيث سميت موجات دخولهم بالطلائع (جمع طليعة)، وهي تضم اثني عشر ألفا من العرب، معظمهم من القيسية واليمنية وموالي بني أمية ومن لحق بهذه الطوائف ومن لحق بهذه الطوائف الثلاث من البربر المنتمين إلى " موسى بن نصير".

[1] – السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وشارهم في الأندلس، دار النهضة العربية والنشر، بيروت، 1981، ص 119.

وقد اســـتقرت هذه الطوائف في نوح متفرقة من الأندلس على طول الطريق الذي ســـار فيه "موسى" وذلك في نواحي الجزيرة الخضراء وأشبيلية وسرقسطة، وبعض نواحي متفرقة في أقصى الشمال والشمال الغربي من شبه الجزيرة الأندلسية.

وقد تتابعت أفواج العرب القادمين إلى الأندلس برفقة الولاة، فقد قدم الوالي " الحر بن عبد الرحمن الثقفي"[1] (في ذي الحجة سنة 97 هـ إن قدم واليا على الأندلس ومعه "أربعمائة رجل إفريقية، فمنهم أول طوالع الأندلس المعدودين".

وكان أغلب عرب هاتين الطالعتين من اليمنيين، وسموا بالبلديين أو أهل البلد لأنهم اســـتقروا في الأندلس، واعتبروا أنفسهم من أهلها وأصحابها.

ثم تأتي طالعة "**بَلَجْ** بن بشير بن عياض القشيري" في سنة 124 هـــ (741م) وأغلبهم من القيسين، ممن تحصنوا بسبتة بعد هزيمة البربر لهم في واقعة "الإشراف".

ويذكر "ابن القوطية":" أن عدد جنود هذه الطالعة كان يقرب من عشـرة ألاف منهم ألفان من الموالي وثمانية ألاف من العرب"[2] وقد سمي عرب هذه الطالعة بالشاميين تمييزا لهم عن البلدين.

[1] – ابن القوطية: تاريخ إفتتاح الأندلس، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، دار الكتاب المصري، القاهرة، ص 37.

[2] – ابن القوطية، نفس المصدر، ص 40.

ثم وفدت على الأندلس الطالعة من الشاميين، وهم ثلاثون رجلا، في صحبة "**أبي خاطر حسام بن ضرار الكلي**[1]".

ونستطيع أن نستنتج مما ذكره "ابن غالب الأندلسي":" **فرحة الأنفس**"، و"ابن حزم" في "**جمهرة أنساب العرب**" أن المنازل التي نزلها العرب في سائر أنحاء الأندلس كانت تتميز بأنها أخصب مناطق البلاد وأطيبها.

وكان العرب يعيشون كالسادة الرومان والقوط، إذ كانوا يمتلكون إقطاعيات كبيرة، يكلون أمر زراعتها ورعايتها إلى الفلاحين الإسبان أو المولدين من العامة، بينما يقيمون في ضيعاتهم أو مجاشرهم أو منياتهم بالقرب من المدن، ولذلك كانوا يتمتعون بحياة الترف والنعيم، وكان عرب بلد الأندلس "أشبيه بالملوك" في حياتهم عندما قدم عليهم عرب الشام لمساعدتهم في إخضاع بربر الأندلس.

كذلك اتخذ العرب اللذين استقروا في المناطق الزراعية بعيدا عن المدن حصونا أو أبراجا للاحتماء فيها مثل: حصن مراد الواقع بين إشبيلية وقرطبة، كما أن بعض العرب أقاموا لأنفسهم ضياعا سميت بأسمائهم، مثل منزل: "همدان"، بالقرب من غرناطة، ومنزل "طيء قبلى مرسية".

[1] – ابن القوطية، ص 43.

ب- البربر: كان الفتح الإسلامي للأندلس نتيجة للتعاون الفعال الذي تم بين العرب والبربر أثناء ولاية "موسى بن نصير" على شمال إفريقيا، ومن الثابت تاريخيا أن غالبية جنود الحملة الأولى التي قادها "طارق بن زياد" إلى الأندلس كانت من البربر.

و كذلك ضمت حملة "موسى بن نصير" لاحقة غلى جانب العنصر العربي من هؤلاء البربر المسلمين الفذين دخلوا الأندلس واستقروا فيها، وكان "موسى بن نصير" قد بعث مولاه "طارق بن زياد" لفتح الأندلس في سبعة ألاف من المسلمين جلهم من البربر والموالي ليس فيهم عرب إلا قليل، والبربر هم سكان سكان شمال إفريقية أو ما يعرف ببلاد المغرب التي تمتد من حدود مصر الغربية حتى ساحل المحيط الأطلسي، وقد اختلف المؤرخون في تسمية البربر بهذا الاسم، فقد ذكر "ابن خلدون": أن أحد ملوك التبايعية في اليمن ويدعى "**أفريقش بن قيس بن صيفي**" غزا بلاد المغرب فبنى بها المدن والأمصار فسميت باسمه، وأنه سمع السكان يتكلمون بلغة غير مفهومة فقال:" ما بربرتكم فسموا البربر".

ويذكر" د. حسين مؤنس" أن البربر ينسبون إلى مهاجر عربي من حمير يسمى "**برين قيس**"، وأنه عندما هاجر إلى بلاد المغرب لم يفهم لغة أهلها فسماها بربرة، وسماهم البربر، وتجدر الإشارة إلى أن هذا الاسم لا علاقة له بلون أو جنس وإنما باللغة.

وقد استقر البربر في الأندلس، وكان استقرارهم مماثلا للبلدين – العرب الأوائل-إذ سكنوا على امتداد الطريق التي سلكتها حملتا "طارق وموسى".

وقد زودنا "ابن خلدون" بأسماء قبائل أربعة كان يتألف منها جيش طارق، الذي دخل الأندلس، وهي مطغرة، مديونة، ومكناسة، وهوارة، وكلها متفرعة من زناتة[1].

ثم يضيق "ابن حزم" في الجمهرة قائمة بقبائل أخرى وفدت إلى الأندلس، وهي مغيلة، وملزوزة، ونفزة، وأوربة، ومصمودة[2].

واستقر البربر كذلك في الأجزاء الشرقية من الأندلس، في منطقة بلنسية ومرسية، وفي الشمال الشرقي في وادي الحجارة، ومدينة سالم، وقلعة أيوب، وتعد مغلية من أوائل القبائل البربرية التي سكنت في وادي الحجارة، وقد أصبح أحد زعمائها، وهو "محمد بن إلياس المغيلي" الذي دخل الأندلس بمعية "طارق بن زياد" قائدا للحامية الإسلامية الأولى.

كما استقروا في الغرب والشمال والشمال الغربي من بلاد الأندلس، وكان استقرار البربر في بعض النواحي إلى جانب العرب، كما انفردوا بالاستقرار في بعض النواحي، واختلطوا في كل ناحية بأهلها، وارتبطوا معهم بروابط الزواج وتحولوا مع الزمن إلى بلديين أي أندلسين.

وقد كان لهؤلاء البربر أثر عظيم في انتشار الإسلام بالأندلس، وقد امتزجوا بأهل البلاد دون تكلف، وكانوا شديدي الحماس للإسلام، فقد كان الإسلام بالنسيبة لهم رمز سيادة، فأظهروا العصبية له، واجتهدوا في نشره، وكانوا سببا في تحول نسبة كبيرة من السكان إلى الإسلام.

[1] – ابن خلدون، كتاب العبر، ج 06، ص 106.

[2] – ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص 461 – 467.

إن معظم البربر الذين دخلوا الأندلس خلال الفترة الأولى من الزناتيين، وكان زعمائهم كذلك زناتيين، لم تنقطع هجرة البربر إلى الأندلس، وكانوا يشكلون كثافة سكانية كبيرة بها، وتدفقت أعدادهم من المغرب نحو الأندلس من القرن الأول الهجري حتى نهاية القرن الرابع الهجري (العاشـــر الميلادي) وذلك لأســـباب عديدة منها تشـــابه المناخ والأحوال الزراعية والجغرافية بين المغرب والأندلس، ومنها أســـباب أمنية انتهجها بعض أمراء وخلفاء بني أمية تهدف إلى اســـتقدام أعداد كبيرة منهم لمقاومة العناصـــر العربية وغير من المناوئين للدولة، غير أنه ســـرعان ما احتدم الصـــراع بين البربر والعرب في الأندلس بسبب استبداد العرب بالحكم واعتبارهم شعبا محكوما ليس له نصيب في الحكم والإدارة رغم دخولهم في الإسلام، إذ حرموا من المساواة السياسية والاجتماعية بالعرب، وتعرضوا إلى سوء المعاملة والإهانة، فكان العرب يوقعون بهم أقصى العقوبات لأتفه الأسباب.

وقد أدى هذا الأمر إلى إشاعة مشاعر الكراهية والبغضاء من قبل البربر ضد الولاة الأمويين في بلاد المغرب، وكان ذلك مدعاة لقيام بثورات متتالية ضد الحكام الأمويين في الغرب والأندلس.

وكانت أولى هذه الثورات ثورة البربر بطنجة سنة 110 هـ ضد الوالي "عبيد الله بن الحبحاب"، وقد تتابعت ثورات البربر ضـد الأمراء الأمويين، ولعل من أخطر هذه الثورات، الثورة التي قام بها رجل من قبيلة مكناسة البربرية يدعى "شقيا بن عبد الواحد المكناسي" في عهد "عبد الرحمن الداخل".

غير أن الدكتور "حسين مؤنس"[1] يرجع أسباب ثورة البربر إلى سوء معاملة العرب لهم، ويعزز رأيه بأن العرب الأوائل، الذين نزلوا الأندلس مع "موسى"، تحالفوا مع البربر الذين دخلوا الأندلس مع "طارق بن زياد" وتسموا جميعا بالبلديين، ونفر هؤلاء البلديون من العرب الشاميين، أتباع بلج، عندما أرادوا مشاركتهم في أراضي الأندلس، ويؤكد "الدكتور حسين مؤنس":" أن المسلمين الأول الذين دخلوا البلاد عربا و بربر، واستقروا حيث نزلوا أو ساروا، ولجأ فريق منهم إلى ما يناسب مزاجه من النواحي، فأما العرب، فكانوا يفضلون دائما البسائط والمنخفضات والنواحي الدفيئة والقليلة المطر، في الجنوب والشرق والغرب، وناحية سرقسطة، وأما البربر فكانوا في بلادهم يعيشون في بلاد جبلية عالية، فألفوا مثل هذه البلاد في الأندلس، فاستقروا فيها باختيارهم"[2].

ت- الموالي: وهم موالي بني أمية الذين جاؤوا مع الفاتحين العرب والبربر، أو جاؤوا للاستقرار في الأندلس بعد ذلك، وتشير الروايات التاريخية إلى أن الوالي على الأندلس "بلج بن بشير القشيري" دخل البلاد سنة 124 هـ ومعه جيش يتألف من ثمانية ألاف من العرب[3] وألفين من الموالي، ومنذ ذلك الحين أصبحوا يؤلفون حزبا هاما انضم إليه من كان في الأندلس من موالي بني أية، وأغلب هؤلاء الموالي من أهل المغرب الذين دخلوا في ولاء بني أمية أو عمالهم، ومنهم بنو الخليغ وبنو وانسوس، وبقية الموالي من المشرق، فمنهم دمشقيون، وأردنيون، وقنسريون، وعراقيون، وفرس.

[1] – نفس المرجع، ص 123.

[2] – د. السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة، دار النهضة العربية والنشر، بيروت 1981م، ص 123.

[3] – ابن القوطية، نفس المصدر، ص 40.

وازداد عدد الموالي في الأندلس بعد دخول بلج الأندلس وأصـــبحوا يؤلفون طائفة قوية تعرف بالأمويين[1]، وازداد الأمويون في الأندلس قوة بعد ســقوط دولة بني أمية في المشــرق وفرار عدد هائل منهم إلى إفريقية والأندلس، بحيث صــاروا بدخول "عبد الرحمن بن معاوية" الأندلس ومحالفته لليمنية، قوة كبرى غلبت قوة أهل الشام والمضرية كلها.

كذلك دخل في جمهرة الموالي بالأندلس عدد كبير من الإســبان الذين دخلوا في ولاء بني أمية بعد الفتح الإسلامي.

وقد لعب الموالي دورا هاما في تاريخ الأندلس في العصــر الإســلامي، إذ اعتمد عليهم بنو أمية، وقلدوهم أهم مناصـــب الدولة، لتفانيهم في الإخلاص لها، فكان منهم الوزراء، والكتاب، والقواد، والقضــاة، ونجح الموالي في كورة إلبيرة في تأسـيس دولة لهم على رأســها "عبد الوهاب بن جرج"، أيام الفئة الأولى[2].

ث– المسالمة: وإلى جانب العناصر الإسلامية السابقة من عرب وموالي وبربر[3]، كانت جماعة الإسـبان الذين دخلوا الإسـلام، ويسـميهم مؤرخو العرب **"المسـالمة"** أو **"المولدون"** وهم من أصـول إسـبانية سـابقة على الإسـلام، كما كان يطلق عليهم اسـم **"العلوج"** – جمع علج – سـواء أكانوا

[1] – ورد اسم الأمويين عند خروج "بلج" من قرطبة لمقابلة جيوش "عبد الرحمن بن علقمة" ومن معه من أعداء الشاميين، " فخرج إليه "بلج" من قرطبة في عشرة آلاف من الأمويين والشاميين وكان لـ "عبد الرحمن ابن علقمة" أربعون ألفا"، ابن القوطيو، ص 41.

[2] – نفس المرجع، ص 126.

[3] – نفس المرجع، ص 128.

مسيحيين أم مسلمين للدلالة على أنهم أصلهم بربري، أي غير عربي، وكان يشار غليهم على أنهم أعاجم أو عجم للدلالة على أنهم كانوا يتحدثون بلسان أعجمي أي غير عربي.

ومن بين المسلمين ذوي الأصول المسيحية العبيد المعتقون الذين كانوا يلقبون بالصقالية أو السلافيون، وقد أصبح هؤلاء جماعة ذات نفوذهم في الإسلام خلال القرنين الهجريين الخامس والسادس/ العاشر والعادي عشر الميلاديين، وقد حافظ هؤلاء على صلاتهم ببلدانهم الأصلية وأقاربهم المقربين هناك، رغم إسلامهم.

ويوجد فرق جوهري ذو دلالة بين هؤلاء المسلمين ذوي الأصول المسيحية والمستعربين الذين احتفظوا بديانتهم المسيحية في إطار المجتمع الإسلامي الذي عاشوا فيه[1].

ج- المولدون:

و هم الذين ولدوا من آباء مسلمين سواء من المسالمة أو العرب أو البربر ونشأوا على الإسلام متخذين لأنفسهم نمط الحياة الإسلامية في الأندلس، وقد جمع هؤلاء المولدون خصال الآباء وهي النجدة والكرم، وخصال الأمهات الاسبانيات من رهافة الحس والتذوق الجمالي ورقة المشاعر، وقد تساوت المجموعات الاسبانية التي دخلت الإسلام، وكانت من الأشراف وأهل المدن ورقيق الأرض والعبيد، تساووا جميعا في ظل الإسلام، وتشكل المولدون في عهد أمراء بني أمية الطبقة الغالبة من

[1] – د. سلمى الخضراء الجيوسي، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، مركز دراسات الوحدة العربية، ط01: 1998، ط02: 1999، ج 02، ص 238.

السكان، وكان الفاتحون العرب والبربر قد تركوا نساؤهم في بلادهم، وأقبلوا على مصاهرة الإسبان، أهل البلاد، ومضوا على هذا النحو يتزوجون من الاسبانيات ما شاءوا، وعاشروا أهل البلاد وجاورهم، وعن طريق المجاورة والمصاهرة، انتشر الإسلام في الأندلس انتشارا تجاوز كل تقدير في الحسبان، وهكذا امتزجت دماء الفاتحين من العرب والبربر بدماء أهل البلاد ليتشكل جيل المولدين.

فكان أول من أقبل على الزواج من نصرانية هو الأمير "عبد العزيز بن موسى بن نصير" حيث تزوج بأرملة "لذريق " المسماة "ايخيلونا" " " وتسميها المصادر العربية "أم عاصم"، فحذا حذوة كثير من رجال العرب أمثال "زياد بن النابغة التميمي"، الذي تزوج هو الآخر من إحدى أميرات إسبانيا و"عيسى بن مزاحم" الذي تزوج من "سارة القوطية" بنت "المند بن غيطشة"[1].

يختلف المولدون عن (الأسالمة) أو (المسالمة)، فهؤلاء عناصر إسبانية أسلمت مع الفتح الإسلامي أو بعده، وبمرور الزمن اصطلح على إطلاق اسم المولدين على كل من المولدين والأسالمة، ولذلك فإن أبناء الأسالمة وأحفادهم كانوا ينتمون إلى أصول إسبانية وإن كانت هذه الأصول أكثر نقاء في الانتماء الاسباني من المولدين[2].

[1] – ابن القوطية، ص 31، تزوجت سارة بعد وفاة زوجها عيسى سنة 138 هـ من عمير بن سعيد وولدت له حبيب بن عمير جد بني سيد وبني حجاج وبني مسلمة وبني حجز الجرز، هؤلاء أشراف ولد عمير بإشبيلية.

[2] – سحر السيد عبد العزيز سالم، الجوانب الإيجابية والسلبية في الزواج المختلط في الأندلس، ندوة الغرب الإسلامي والغرب المسيحي خلال القرون الوسطى، تنسيق محمد حمام، جامعة محمد الخامس، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ط 01، 1995م، ص 48 – 49.

مثل المولدون نسبة هامة من السكان المسلمين، وبخاصة في الجزء الشرقي من الأندلس، حيث احتكوا بنصارى الأندلس وكذا بالقشتاليين في الشمال الشرقي، وسبب اتصالهم اليومي مع جيرانهم من النصارى صعب انصياعهم للدولة الإسلامية، إضافة إلى تذمرهم الشديد من احتكار العرب للسلطة المركزية.

لقد كان المولدون أوفر العناصر الأندلسية حركة، وأكثرها أهمية في الحياة العامة، وفي الفاعلية الاقتصادية للبلاد، وكان من المأمول أن يضلوا في وئام وانسجام مع العناصر الأخرى لبناء دولة الإسلام وحضارته في الأندلس بعد أن نشأوا مع أصحاب الدعوة، وتحسنت ظروفهم في الحياة بالعقيدة الجديدة من الناحيتين القانونية والاجتماعية ولكنهم – لسوء الحظ– قد أظافوا عنصرا جديدا إلى الصعوبات التي قامت في وجه مسيرة الحضارة العربية الإسلامية، إذ أنهم كثيرا ما اتحدوا ضد العرب، وتمردوا على سلطانهم ودخلوا معه في صراع مرير استفحل أمره في عهد الأمير "عبد الله بن محمد" الذي تولى الإمارة في سنة 275 هـ – 300 هـ، ولعل من أخطر ثورات المولدين التي اندلعت في وجه الأمراء الأمويين، "ثورة عمر بن حفصون"، وقد اندلعت هذه الثورة في أخريات أيام "الأمير محمد بن عبد الرحمن" في سنة 272 هـ، وقد أرهق الدولة الأموية أيما إرهاق.

وكذلك من ثورات المولدين الخطيرة التي أقضت مضجع الأمارة الأموية، ثورة "عبد الرحمن بن مروان" المعروف "بابن الجليقي"[1]، "وكانت دعوته عصبية المولدين على العرب".

لا شك أن ثورات المولدين قد أسهمت بقدر كبير في ‘ضعاف الحكم الأموي في الأندلس، وأدت إلى استنزاف مقدرات الدولة المالية والعسكرية، ومما لا شك فيه أيضا أن المولدين بثوراتهم المتكررة قد شاركوا العناصر الأخرى في إنهاء الحكم العربي الإسلامي في الأندلس في وقت مبكر.

ح- الصقالبة:

هم الرقيق المستجلبين من الشمال، وأصلهم أسرى الجيوش الجرمانية في حروبها مع السلافيين، ثم حملوا إلى الأندلس وبيعوا فيها[2].

لقد شكل الصقالبة جزءا من مكونات المجتمع الإسلامي في الأندلس وغيرهم من العناصر الأخرى، وكان لهم دور مقدر في كثير من الأحداث ومجريات الأمور في الدولة الإسلامية في الأندلس وخاصة في عصر الخلافة، ومن المعلوم أن تجارة الرقيق انتشرت انتشارا واسعا في الدولة الإسلامية، كما انتشرت في غيرها من الدول، وتنوع الأرقاء فمنهم السود، ومنهم البيض أو المماليك وكانوا يفضلون على السود وتبذل الأثمان لغالية في شرائهم، وكان أغلبهم يؤتى بهم أطفالا تتم تربيتهم تربية عسكرية

[1] – السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة، دار النهضة العربية والنشر، بيروت، 1981م، ص 128.

[2] – أحمد شحلان، مكونات المجتمع الأندلسي، مجلة التاريخ العربي، الرباط، المغرب، العدد 01، 1997م، / ص 233.

يدربون على الخدمة في القصـــور والانخراط في ســـلك الجندية ليكونوا جنودا في الحرس والجيش، وكان المستخدمون منهم في القصور يتم إحضارهم للقيام بخدمة الحريم.

ويذكر "حسن إبراهيم حسن" أن الصقالبة كانوا يجلبون من أسرى الحروب أو من هؤلاء الذين استولى عليهم القراصنة من السواحل الأوربية أو من سواحل البحر الأبيض المغربية[1].

لقد كان للصقالبة دور مهم في الحياة السياسية بالأندلس في هذا العصر حيث تدخوا في تولية الأمراء وعزلهم، وشـــاركوا في غمار الكثير من الفتن والأحداث والمؤامرات التي عصـــفت بالدولة الإســـلامية في الأندلس، وقد كان لهم أثر أيضـــا في الحياة الاجتماعية حيث جلبوا معهم من بلادهم الكثير من عاداتهم وتقاليدهم وفنونهم، ويبدوا أن الصقالبة كانوا يعتبرون أنفسهم عنصرا متميزا ولذلك فإنهم لم يختلطوا بالعناصر الأخرى، وحاولوا المحافظة على كيانهم الخاص مما بعث فيهم النزعة العنصرية أكثر من غيرهم، وقد استطاعوا في نهاية الأمر أن يستأثروا بنصيب من تركة الخلافة الأموية، فكونوا لهم مماليك في شرق الأندلس.

ثانيا: النصارى المستعربون

هم نصارى الإسبان الذين كانوا يعاشرون المسلمين ويتكلمون العربية مع احتفاظهم بدينهم ولذلك عرفوا بالمســـتعربين، وكان المســـتعربون أو العجم في الأندلس يؤلفون جمهرة ســـكان البلاد في الســـنوات الأولى التي تبعت الفتح الإســـلامي، ولم يكره الفاتحون المســـلمون أحدا منهم بالدخول في

[1] – حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، القاهرة، 1962م، ج 04، ص 30.

الإسلام وتركت لهم حرية ممارسة شعائرهم الدينية، وأقرهم "موسى بن نصير" " على أموالهم ودينهم بأداء الجزية، وهم الذين بقوا على ما حيز من أموالهم بأرض الشمال لأنهم صالحوا على جزاء منها مع أداء الجزية في أرض الثمرة وأرض الزرع على ما فعله خير من افتدى به صلى الله عليه وسلم بيهود خيبر في نخيلهم وأرضهم"[1].

و قدر على المسلمون من بعد ذلك هذا العهد الذي كتبه "عبد العزيز بن موسى" رعاية تامة وعاملوا النصارى معاملة كريمة، وكان لسياسة التسامح التي سار عليها الفاتحون أثر كبير في إسلام عدد كبير من النصارى كما وردت الإشارة إلى ذلك عند الحديث عن المولدين، وقد أظهر المسلمون الفاتحون كثيرا من الحكمة والعدل في ممارسة الحكم في الأندلس فمنحوا المسيحيين وغيرهم الأمن والحرية وشمولهم بذمتهم ما داموا على الطاعة، ولم يفرضوا عليهم إلا ضريبة مالية زهيدة في صورة جزية أو خراج حسبما تنص الشريعة الإسلامية وزيادة في التسهيل فقد جعلوها متدرجة متفقة مع قدرات المسيحيين المالية.

و تكثر الأدلة على التسامح العظيم الذي أبداه المسلمون نحو نصارى الأندلس فقد كانوا يرحمون الضعفاء ويقفون عند شروطهم معهم- وباستثناء الجزية والخراج، فلم يمس المسلمون غالبا من ممتلكات المسيحيين، إلا الأموال الخاصة بالكنيسة، أو ما كان من ممتلكات الأسرة الحاكمة، أو ما كان مملوكا لهؤلاء الذين حملوا السلاح في وجه المسلمين، ثم قتلوا في الحرب أو الذين فروا إلى الشمال

[1] – د. السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، دار النهضة العربية والنشر، بيروت، 1981، ص 130.

تاركين أموالهم من خلفهم، واعتبرت هذه الأموال غنيمة تمتلكها الدولة، وقد ترك الباقي من الأراضي في يد من كانوا يزرعونها يؤدون عنها فيئا للجماعة الإسلامية كلها، والخراج نفسه كان مفروضا على النصارى واليهود والمسلمين بعدل ومساواة.

و قد ترك المسلمون نصارى الأندلس أحرارا ينظمون أمورهم على النحو الذي أرادوه، ماداموا على الطاعة يؤدون ما عليهم من الأموال، فظلوا يفصلون في أقيضتهم وفقا للقانون القوطي القديم، وظلت علاقتهم بكنائسهم وقساوستهم على ما كانت عليه قبل الفتح، وكان يدير أمور الجماعات الإسلامية في المدن والأرياف رجال من نصارى عجم الأندلس "سيمون بالقمامسة" – أي كان لهم رئيس في كل مدينة يعرف بالقومس[1] وهو لقب كبير كان مقصورا على القوط فلما أزال المسلمون أمر القوط صار القمامسة من أهل البلاد فكأن الفتح الإسلامي رد إليهم اعتبارهم من هذه الناحية، كما ترك المسلمون للجماعات النصرانية نظامها المدني الذي كانت جارية عليه من قبل، وهو نظام مدني وإداري أيضا، وكان القائمون بأمره مسؤولون عن كل ما يتصل بأمور رعاياهم فيما بين أنفسهم، كانوا يجمعون ضرائبهم ويؤدونها إلى بيت المال نيابة عنهم، وكانوا يعينون لهم القضاة الذين يفصلون في منازعاتهم وفقا لقوانينهم، فكان لهم قاض نصراني يفصل في منازعاتهم يعرف "بقاضي العجم".[2]

[1] كان ارطباس أو قماسة الأندلس، ومنصب القومس وضعه الأمير عبد الرحمن بن معاوية، ارجع ابن القوطية ص 31 وكان قومس الأندلس القومس العالى في البلاد، وكان حق تعينه في يد المير الأموي، أما القماسة المحليين فكان ينتخبهم النصارى في كل مدينة.

[2] ابن القوطية، ص 50 كان القاضي حفص بن البر اول قاضي للعجم وكان يتبع القوانين القوطية القديمة في احكامه.

وإذا كان المتخاصمون مسلمين ومسيحيين، فإن القاضي الذي يفصل بينهم كان قاضيا مسلما يعرف "بقاضي الجند"، ثم سمي فيما بعد "بقاضي الجماعة"[1]، وعلى هذا النحو كان على القاضي المسلم أن يكون ملما إلماما كبيرا بالقانون القوطي والشريعة الإسلامية، حتى يوفق بينهما دون أن يتقيد بنص أحدهما، وبذلك طبق المسلمون سياسة من التسامح على أهل الذمة من النصارى سواء كانت أرضهم أرض عنوة أو أرض شمل.

و قد ترك المسلمون للنصارى في الأندلس كنائسهم باستثناء الكنائس التي قسمها المسلمون بينهم وبين النصارى، وأقاموا فيها مساجد جامعة، مثل جامع قرطبة الذي أقيم في شطر من كنيسة "شنت بنجت"، ومسجد "رقينة" الذي أقيم في كنيسة"سانتا رقينة"، كذلك كان للنصارى أديرتهم مثل دير أرملاط في الطريق من قرطبة إلى طليطلة[2]، وكانت اشبيلية مركزا أسقفيا هاما، وكان أول من تولى أسقفية أشبيلية "المطران ابن المند بن غيطشة"[3]، وهذا دليل على أن المسلمين تركوا النصارى أحرارا في إنشاء ما يريدون من الأديرة، وبلغ التسامح بين المسلمين والنصارى في اسبانيا درجة كبيرة حتى أنهم سمحو لأساقفتهم أن يعقدوا مؤتمراتهم الدينية كمؤتمر اشبيلية النصراني الذي عقد في سنة 782 م، ومؤتمر قرطبة النصراني الذي عقد في سنة 852م، وكان للنصارى كنائسهم في أحيائهم الخاصة بهم بقرطية وسرقسطة وطليطلة واشبيلية، وكانوا يقرعون نواقيسهم رغم ما كان يسببه هذا من إزعاج

[1] النبهاني، تاريخ قضاة الأندلس، نشرة ليفي بروفنسال القاهرة، 1941 ص 21.

[2] –ابن عذارى، البيان الغرب ج 03 ص ما يليها.

[3] –ابن القوطية ص 4.

المسلمين وإثارة بعض المتعصبين منهم عليهم، وفي قرع النواقيس دلالة واضحة على تسامح المسلمين وتركهم النصارى يمارسون شعائر دينهم في حرية تامة، وقد نظم "ابن حزم" أبياتا فيها ذكر لقرع النواقيس منها:

أتيتني وهلال الجو مطلع قبيل قرع النصارى للنواقيس[1].

ووصف الشاعر أبو عامر بن شعيد إحدى الكنائس فقال:" وقد فرشت بأضغاث آس، وعرشت بسرور واستيناس... وقرع النواقس يبهج سمعه، وبرق الحميا يسرح لمعه، والقس قد برز في عبدة المسيح متوشحا بالزنانير، أبدع توشح"[2].

وقد ظل النصارى الأسبان يتمتعون بحريتهم الدينية حتى جاء المرابطون إلى الأندلس وأخذوا يحدون منها، فقد طالب "ابن عبدون" في كتابه عن آداب الحسبة، أن يمنع قرع النواقيس من الكنائس، وأن يرتدي المسيحيون واليهود ثيابا معينة، وألا يركب أحد منهم جوادا، وألا يشتري مسلم رداء ارتاده مسيحي أو يهودي[3].

و يغيب على الظن أن هذا الاضطهاد بدأ عقب توسع حركة الاسترداد المسيحي في قلب اسبانيا الإسلامية واتهام المسلمين لهؤلاء المستعربين بالتجسس عليهم لمصلحة الدول المسيحية في شمال اسبانيا، وخاصة بعد حملة "ألفونسو المحارب" سنة 1125م التي اجتاح فيها بلاد الإسلام حتى أدرك

[1] –ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة في الألفة والألاف، نشره ليون برشية، الجزائر، 1941 ص 347.

[2] – المقري، نفح الطيب، ج 02، ص 52.

[3] – ابن عبدون، آداب الحسبة، ترجمة الأستاذ ليفي بروفنسال، باريس 1947، ص 112، 113.

قرطبة واشـــبيلية، وزاد اضـــطهاد الموحدين لهم فنفوهم إلى بلاد المغرب حتى يكونوا بعيدا عن مؤازرة الممالك المسيحية في الشمال، واستطاع عدد كبير من المستعربين التسلل من الأندلس إلى هذه الممالك الشمالية، وكان الخليفة "أبو سيف يعقوب المنصور" أشد خلفاء الموحدين وطأة على أهل الذمة[1].

و قد برز من المستعربين شخصيات عديدة قامت بدور مهم في الحياة الاجتماعية في الأندلس مثل "وليد بن خيزران" قاضـــي النصـــارى بقرطبة الذي كان يقوم بمهمة الترجمة للخليفة "عبد الرحمن الناصر" عندما تأتي إليه الوفود النصرانية، ومنهم كذلك الأسقف "ربيع بن زيد" المعروف في المدونات الإسبانية باسم "ريسموندوا ومطران طليطة عبيد الله بن قاسم"، وأسقف قرطبة "أصبغ بن عبد الله بن نبيل"، كما نبغ منهم عدد من المترجمين قاموا بترجمة كثير من الكتب الاســـبانية إلى العربية بفضـــل إجادتهم للغة العربية واللاتينية، وكانوا بذلك حلقة اتصال بين الثقافة العربية والأوروبية[2].

و على الرغم من هذا التسامح الذي وجده النصارى في ظل الحكم الإسلامي للأندلس، إلا أنه في أواخر عهد "عبد الرحمن بن الحكم" الملقب بالأوسـط هبت على نصـارى قرطبة ريح شـديدة من التعصب، ولاحت في الأفق بوادر فتنة دينية واجتماعية خطيرة، ولم يكن في نظم الحكم الإسلامي، ما يقصد به إلى إيذاء النصارى المستضلين بلوئه، ولم تشد حكومة قرطبة عن سياسة التسامح الإسلامي المأثور، ولم تتدخل في شـؤون النصـارى الدينية، أو تتعرض لعقائدهم أو شـعائرهم، غير أن هناك فريق من النصـارى المتعصبين الذين كانوا يرون أن المسلمين أجانب غاضبين معتدين على دينهم وأوطانهم،

[1] – المراكشي، المعجب ص 305.

[2] – السيد عبد العزيز سالم، ص 132.

وكان أولئك الغلاة يبغضـون إخوانهم النصـارى المعتدلين ويرمونهم بالمروق والخيانة، وكان رجال الدين، وهم في الأصل مبعث التعصب ودعامته، وكانوا يبغضون المسلمين أشد البغض ويسخرون من دينهم وبينهم ويجاهرون بهذا البغض، وهذا العداء السـافر قال عنه "ابن عذاري" ووثائق العصـر: لقد دأب المسـلمون في الأندلس على معاملة النصـارى المعاهدين بالحسـنى، كما كان النصـارى يراعون شـعور المسـلمين، غير أن وثائق الكنائس التي وصـلتنا تدل على أن مراجل البغضـاء كانت تغلي أحيانا بين الفريقين، وكان المسـيحيون في بداية أيام رفض الوجود الإسـلامي، إذا سمعوا الآذان تعوذوا بالله ورسموا إشارة الصليب على صدورهم وقد أقر بذلك القديس "أولوخيو" الذي كان من الممتحنين عام 235 هـ / 850 هـ، حيث قاد حركة تمرد ضد السلطة السياسية العليا وضد السلطة الفقهية.

فقد جادلهم الفقهاء للرجوع عن غيهم وأصـرت الحركة على تحدي مبادئ وقيم الدولة ومسـت شـعور الرأي العام بما في ذلك المستعربون الذين أحسـوا بالأمان والأمن، فرفضـوا مبدأ التوبة والتراجع فحكمت عليهم السلطة بالإعدام، وأعدم أولوخيو سنة **245هـ /859 م**، وقد سبقه إعدام برفكتوا وهو أول ضـحية من ضـحايا التصـرف الحاقد، فقد اسـتدرج أحد العرب المسـلمين إلى نقاش حول العقيدة، وبلغت به الحماسـة إلى درجة فقدان السـيطرة على عباراته التي جنحت إلى التطرق في تحقير النبي والإسـلام وكانت المناسـبة عيد الفطر سـنة **235 هـ/850 م**، وأعدم إسـحاق سـنة **236هـ/851م** وفلورا (Flora) تلميذة أولوخيو سـنة **237هـ/ 852م**. ومما قرره فقهاء الأندلس

أن من شتم النبي وحقره وجب قتله[1] ولوكانت سياسة التسامح التي أقامها الحكم الأموي بالأندلس قد رحب بها السواد الأعظم من المستعربين، بما حملت اليهم من الفائدة والشعور بعودة الاعتبار الاجتماعي، كأعضاء عاملين في الدولة . لذا فان اولوخيو قد مثل طبقة الرهبان والقساوسة الذين انفردوا مع ذواتهم تحت أسقف الكنائس والأديرة، ظلوا بعيدين عن تيار التسامح الذي أقامه الحكم الأموي خاصة في عهد الحاكم الشاب المتسامح المثقف الأمير عبد الرحمن الذي حاول معالجة قضية الاستشهاد باللين والرفق مع رئيس الأساقفة ريكافريدو(Recafredo)، وهذا بعقد مجمع كنسي لحل الإشكال والدعوة إلى التسامح ونبذ التعصب، فانعقد المجمع عام **237هـ/852م** بقرطبة، ونتج عنه إصدار بيان استنكاري ضد عمل أولوخيو، ودعا المجمع المسيحيين المخلصين الى السكون، وأصدر الجميع البيان الاستنكاري لعملية القديسين الشهداء، ما عدا أسقف قرطبة الذي اعتبر العملية من نسق المسيحية والكنيسة، وقد جرفته الموجة العاطفية المحمومة، ووجد ما يدافع به عن هؤلاء المتطرفين من خلال فكرة الاستشهاد في العقيدة المسيحية.[2]

وقد وجد الجدل مساحة واسعة من التسامح مما دعا أسقف قرطبة الفارو(Alvaro) أيام الخلافة لدعوة رعاياه من المسيحيين إلى التمسك بأهداف الكنيسة وترك الثقافة والفكر الإسلامي[3]،

[1]– ابن مشايد، كنز الأسرار ولواقح الأفكار، ورقة: 56 ظهر.

[2] – بيضون، الدولة العربية في اسبانيا، ص 253. شكيب أرسلان، تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وايطاليا وجزائر البحر المتوسط، بيروت، منشورات مكتبة الحياة، 1979م. ص 290.

[3] – محمد رجب البيومي، الأدب الأندلسي بين التأثير والتأثر، ص 234. مارتينيانو بيلغرينو رونكاليا، أثر كتاب المعراج" للبصرى" في الوميديا الالهية لدانتي (دراسات في التفاعل الحضاري بين الشرق والغرب)، ص:292

وقد أبقى المسلمون النصارى على أملاكهم وكنائسهم ولم يتعرضوا لهم في حياتهم الدينية، ورغم ما يقال فإن التسامح المعروف عن المسلمين تقره كل الوثائق والأقلام المنصفة.[1] رغم أن النصارى من أهل الذمة زرعوا الحقد في نفوس المولدين، فكانوا عونا لهم في إثارة القلاقل والفتن والثورات لمناهضة الحكم الإسلامي للبلاد وقاموا بفتنة طائفية بقرطبة أيام أمراء بني أمية، لإثارة نصارى الشمال ضد مسلمي الأندلس، وتسهيل الطريق لكل مغامر لاستعادة البلاد من أيديهم كما رأينا.

لقد انتشرت اللغة العربية بين المستعربين وكانوا يحسنونها ويتكلمونها حتى شكا القس من أن شباب النصارى يتعلمون ويقولون بها شعرا، إن إخواني المسيحيين يستمتعون بقصائد العرب وحكاياتهم منهم يدرسون مؤلفات علماء الكلام والفلاسفة المسلمين لا لينقضوها وإنما ليحرزوا أسلوبا عربيا..." ويحقق للإنسان والمؤرخ أن يسأل :بأي لسان كان العرب يكلمون الأمم التي تغلبوا عليها، حيث كان العرب لا يحفلون – حد قول **جوزيف رينو**– بغير لغتهم كما أن المسيحيين لذلك العهد كانوا من الجهل والبربرية بحيث لم يكونوا يفكرون في تعلم العربية، ولم يذكر التاريخ رجلا مسيحيا أوائل أيام الفتح الإسلامي أتقن العربية غير **هارتموت** (Hertmote) رئيس **دير سانغال** الذي كان يعرف العربية واليونانية والعبرية، وكان من رجال القرن التاسع، وحسب رأي رينو وهو مبالغ في الأمر لم يبدأ آباؤه بتعلم العربية إلا في أيام الحروب الصليبية، إذ لم يجدوا غنى عن الاطلاع على لغة قوم استولوا على جانب من بلادهم؟ والحقيقة أن تعلق المستعربين باللغة العربية يكاد يكون كبيرا بحيث ان كتبهم

[1] – إبراهيم بيضون، الدولة العربية في اسبانيا، ص:292.

وأناجيلهم إلى غاية القرن الرابع عشر كانت مكتوبة باللغة العربية كما نشر بعض نصوصها الراهب **اسين بلاثيوش**، ولقد أضحت أداة العلم الإسلامي الرئيسية في الشرق، كما كانت اللغة اللاتينية في القرن الثالث عشر الميلادي، وهذا معناه إعادة إحياء اللاتينية من جديد، رغم أن الإصلاح العلماني الذي قام به **ألفونسو** العالم قد بدأ باللغة الاسبانية، لأن الفتح الإسلامي كما يقول المؤرخ الاسباني **إغناسيو أولاغي** (**Ignacio Olague**) قد أدى إلى انهيار اللاتينية لغة الكنيسة إلى حدود القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي إلى حد ما، على وحدة أوروبا التي حققتها الدولة الرومانية قديما.

ويشير كتاب الفلاحة لمؤلف مجهول من عصر المرابطين أو أوائل الموحدين إلى ظاهرة كتابة المصنفات الطبية وكتب الأدوية المفردة بلهجات الحواضر الأندلسية إضافة إلى اللغة العربية الفصحى – اللغة الرسمية ولغة الإدارة، والثقافة والمراسيم الدينية حتى في الشنائع والكنائس اليهودية والمسيحية، وأداة التواصل بين كل سكان الأندلس – كما قام اليهودي **ابن بقلاريش** (Ibn Biklarish) (ت. **500هـ/ 1106م**) السرقسطي بكتابة مصنفاته بلهجات أهل سرقسطة وبلنسية، لهذا يعتبر علماء اللسانيات إن أهم مصادر لهجات ولغات المستعربين في مختلف حواضر الأندلس وريفها لا يمكن معرفة غلا بالعودة إلى دواوين وأعمال **ابن العوام، ابن بقلاريش السرقسطي، يهودا بن جناح، ابن البيطار، ابن ليون التجيبي، ابن وافد الطليطي.**

حيث تؤكد الأخبار أن **ريموندو** إلى هذه العناصر المستعربة لتنمية الدراسات وازدهارها، وهم القادرون على قراءة الكتب العربية وتفسيرها، حيث دلت حواشي الكتاب المقدس والتراتيل الكنيسة والمؤلفات الخاصة بهم أنها مكتوبة بالغة العربية، وهي لغتهم الأم، لذلك كانوا أقدر من غيرهم على نقل التراث الإسلامي من اللغة العربية إلى الرومانسية، وعلى هذا النحو تمت أكثر الترجمات، ولا نعجب بعد ذلك إذا شوهد فيها نقص، فانه بالإضافة إلى الصعوبات التي كانوا يلاقونها في النقل من لغة إلى أخرى، ظهرت صعوبة أخرى هي العثور على الكلمات التقنية في مختلف فروع العلم والمعرفة، ومن المعروف أن اللغة العربية لغة صعبة، والرهبان المتشوقون إلى اكتشاف كنوز العلم عند المسلمين لم يتوافر لهم الوقت ولم يملكوا الوسائل لإجادة هذه اللغة، غير أنه في أوروبا منطقة امتازت عن غيرها من حيث هي ملتقى الحضارتين الغربية والشرقية، مما اجبر الناس على تعلم عدة لغات.

ثالثا: اليهود

كانت هناك جاليات يهودية تعيش في معظم المدن الأساسية، وكان المسلمون عند فتحهم الأندلس إذا وجددوا اليهود ببلدية تركوهم بها، وابقوا معهم من المسلمين طائفة. شكل اليهود الطائفة الثانية من أهل الذمة في الأندلس، وقد كانوا يؤلفون قسما مهما من سكان أسبانيا إبان القرون الوسطى، وقدر عددهم خلال الفتح الإسلامي للبلاد بما يزيد عن مائة ألف، وقد عانى اليهود كثيرا من اضطهاد القوط والرومان لهم قبل الفتح الإسلامي، وقد بلغ الاضطهاد مبلغا كبيرا إذ حرموا عليهم إقامة شعائرهم الدينية وأرغموا على التنصر، فبدءوا يتآمرون سرا ضد القوط، فأسرف القوط في سياسة

الاضـطهاد لليهود واعتبروهم جميعا أرقام يجب توزيعهم على المسـيحيين، وعملوا على فصـل أولادهم عنهم وتنصـيرهم ولما جاء الفتح الإسـلامي وقف اليهود إلى جانب المسـلمين، ودلوهم على نقاط الضـعف في البلاد، وقد عامل المسـلمون اليهود معاملة طيبة كما فعلوا مع المسـيحيين فأدخلوهم في ذمتهم مقابل الجزية، وعاملهم بتسـامح يدعو للإعجاب سـواء خلال عصـر الولاة أو ما بعده فكانت لهم بيعهم ورجال دينهم، وقضاتهم، وقوانينهم ومحاكمهم الخاصة، كما تقلد بعضهم مناصب في الدولة، ونتيجة لحسن المعاملة التي وجدها اليهود في الأندلس، فقد انجذب كثير من اليهود من البلدان الأخرى إليها، وازدهرت أحوالهم المادية، وكان اليهود يتجمعون في عدة مدن بالأندلس وعلى رأسـها غرناطة التي كانت تذخر بأكبر جالية يهودية ولذلك سميت بغرناطة اليهود[1]. كذلك تمتع اليهود بتسـامح كبير من جانب العرب، لموأزرة اليهود لهم عند الفتح[2].

وقد كان لليهود دور مهم في الحياة الاقتصادية في الأندلس وكذلك في الحركة العلمية حيث كان منهم المترجمون ومنهم الأطباء والفلاسـفة والشـعراء، مثل حسـادي بن شـبروط طبيب الخليفة الناصـر الذي كان رسوله في استقبال الكثير من سفراء الدول والممالك الأجنبية، كما نبغ منهم شعراء بالعربية وهو سي بن ميمون الفيلسوف وإبراهيم بن سهل الإسرائيلي الشاعر.

[1]- الحميري، الروض المعطار(-) عبد العزيز سالم، المساجد والقصور بالأندلس، ص 107.

[2] -ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج1، طبعة القاهرة (90)، ص 17.

لقد تمتع اليهود خلال هذه الفترة بكثير من ألوان التســـامح لم يظفروا به خلال حكم القوط، فقد غدوا عنصـرا مهما في الإدارة والتجارة والصـيرفة كما أسـندت إلى الكثير منهم مناصـب مهمة في الدولة، وأصبحت بعض الحروف تكاد تكون مقصورة عليهم.

الفصل الثاني: الأحوال الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في الأندلس

- المبحث الأول: المستعربون في الأندلس

- المطلب الأول: تعريف المستعربين لغة
- المطلب الثاني: تعريف المستعربين اصطلاحا
- المطلب الثالث: ظهور المستعربين

℘ المبحث الأول: المستعربون في الأندلس

إن ظهور الدولة مهما اختلف الزمان والمكان، يجعلنا نفترض وجود مجموعات عرقية ودينية متعايشة ومتساكنة في داخلها، وفقا لنظم وقوانين مستقاة من الدين، أو الأعراف السياسية والاجتماعية، تحددها وتفرضها الفئة الغالبة، أو يتم التوافق والإجماع عليها من كل الفئات، ومن الطبيعي في مثل هذا الوضع أن تتباين مساحات الحريات المتاحة للأفراد والجماعات لممارسة الشعائر الدينية، والأنشطة الاجتماعية، والامتيازات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وفقا للقرب أو البعد من المصدر الذي استقيت منه القوانين، والسلطة التي تقوم بتنفيذها أو فرضها، ومدى تأثيرها بالعالم المحيط بها، واستعدادها للتعايش وتبادل المصالح معه.

ولما كان البحث العلمي في العلوم كافة، والعلوم الإنسانية بصفة خاصة، يهدف إلى اكتشاف جوانب النقص والقصور، التي تعاني منها المجتمعات البشرية في المجالات المختلفة، فإنه من الطبيعي أن تتجه أنظار الباحثين في التاريخ وتتركز حول الموضوعات ذات الراهنية، ومن هنا تأتي أهمية الدراسة التي نحن بصددها.

➢ المطلب الأول: تعريف المستعربين لغة

في لغة الفقه والفقهاء، فقد عرفوا بأسماء عديدة **كالمعاهدة[1]، والذمة[2]، وأهل الذمة[3]** نسبة للحماية التي توفرها لهم الدولة الإسلامية مقابل الجزية التي يدفعونها إليها، وهذه الأسماء والامتيازات يشاركهم فيها اليهود، الذين يعيشون في كنف الدولة الإسلامية، وقد انتبهت بعض المصادر إلى هذه المسألة، فأطلقت عليهم أسماء أكثر تحديدا **كنصارى الذمة، والنصارى المعاهدين[4]**، ومن الأسماء التي أطلقت عليهم أيضا **المُسالمة**، أي الذين يعيشون في سلم مع أنفسهم ومع الآخرين، للتفريق بينهم وبين نصارى دار الحرب.

أما الوثائق الاسبانية واللاتينية والقشتالية القروسطية، فلم تستعمل أي واحد من الأسماء سابقة الذكر-غما لعدم معرفتها بها أو لتجاهلها لها-وإنما استعملت لهم اسما واحدا، ولكنها اختلفت في نطقه وكتابته، وهو **المستعربون**.

ففي وثيقة ترجع لعام 405 هـ/ 1101م، موضوعها امتياز منحه "ألفونسو السادس" لمستعربي طليطلة بعد استرجاعه لها، ورد اسمهم مكتوبا " **Rabes Must** "، وفي امتياز منحه الإمبراطور "ألفونسو السابع" للمستعربين الإسبان والفرنجة القاطنين في طليطلة في عام 512هـ/ 1118م، ورد

[1]- ابن الخطيب، أعمال الأعلام ...، تحقيق ليفي بروفنسال، بيروت، 1956، ص 18.

[2]- ابن عذارى المراكشي، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، ط 3، ج 2، ص 106.

[3] - ابن القوطية القرطبي، تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق عبد الله أنيس، بيروت، 1957، ص 109.

[4] - ابن الخطيب: المصدر السابق، ص 33.

اسمهم مكتوبا " **Rabes Muz** "، كما ورد مكتوبا بالكيفية نفسها في إحدى الوثائق الأراغونية، التي كتبها أحد الإخباريين الآتين المعاصرين للإمبراطور السابق، وفي الوثائق التي أكد فيها الملك "ألفونسو الثامن"، ثباته على الامتيازات التي منحها للمستعربين في عام 572هـ/ 1176م، وفي وثيقة كتبت في عام 658هـ/ 1259م ترجع إلى "ألفونسو العالم" "**Alfonso el sabio** ".

أما "الفونسو المحارب" " **Alfonso el Bata** "، فقد أطلق على المستعربين الذين كانوا يعيشون في ظل الحكم الاسباني في الأندلس في عام 525هـ/ 1126م وعلى مستعربي منطقة وادي الحجارة " **Guadalajara** " في عام 527هـ/ 1133م، ومستعربي أراغون " **Aragn** " في عام 551هـ/ 1156م، اسم " **RabesMos** "، واستعمل هذا الاسم بالرسم نفسه ملك قشتالة "**Gastilla**" القديس "فيرناندو" **San Fernando** " في عام 619 هـ/ 1222م، والملك "ألفونسو العالم"، ولكن معرفا بال "**Rabes Al Moz**".

أما مستعربو قشتالة وطليطلة، فقد أطلق عليهم "ألفنوسو المحارب" في عام 512هـ/ 1137م " **Rabo-Moz** ".

وفي بدايات القرن الثاني عشر الميلادي، أطلق عليهم الكاتب الانجليزي "أودريكو فيتال" "**Corderico Vital** " اسم " **Muceravios** "، ثم جاء بعده الشاعر الاسباني "غونثالودي بيريثو" " **Gonzalode Berceo** " في الربع الأول من القرن الثالث عشر الميلادي، فأطلق عليهم اسم " **Rabia-Moz** "، وفي القرن نفسه أطلق "يعقوب بن فترياكو" "

Jacobo de Vitridco" عليهم وعلى النصارى الخاضعين للدولة الإسلامية في شمال إفريقيا ." **RabesMos**"

ومجمل القول، فإن اسم المستعربين بكتاباته اللاتينية والقشتالية كان اسما شائعا ومستخدما لهذه الطائفة من السكان في إقليم اسبانيا المختلفة بعد استيلاء "ألفونسو السادس" على طليطية، ثم انتقل منها إلى شمال إفريقيا.

أما عن الأصل اللغوي لمصطلح "مُسْتَعْرَبْ" بالشكل الذي كتب به في الكتابات الاسبانية واللاتينية، فهو اسم مفعول مبني للمجهول مأخوذ من الفعل **"عَرُبَ"**[1] وربما كان ورود هذا الاسم بهذه الصيغة مقصودا من قبل المستعربين، وذلك لإبعاد تهمة الاستعراب والاندماج في الحضارة الإسلامية ومجتمعها عن أنفسهم، وإظهار أن العروبة كان مفروضة عليهم من قبل الدولة المسلمة ومجتمعها الذين يعيشون وسطه ويشكلون جزءا منه، ويؤيد وجهة النظر هذه عدم استعمالهم لمصطلح **"مُسْتَعْرَبْ"** الذي هو عبارة عن اســـم فاعل مأخوذ من الفعل **"عَرُبَ"**[2] في كتاباتهم وألقابهم، وذلك لأنه يعني أن الاستعراب قد نتج عن رغبة منهم.

[1]- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، **لسان العرب**، بيروت، ط. 1، 1997، مج 4، ص 289-290 مادة «عرب»؛ ومجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي، **القاموس المحيط**، تحقيق مؤسسة الرسالة بإشراف محمد نعيم العرقسوسي، بيروت، ط. 3، 1413 هـــ - 1993م، مادة «عربة»؛ و**المعجم الوسيط**، أخرجه (د. إبراهيم أنيس؟، د. عبد الحليم منتصر، عطية الصوالحي، محمد خلف الله أحمد) دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط 2، ج 2، ص 591، مادة «عرب».

[2]- المعاجم السابقة نفسها، مادة«عرب».

➢ **المطلب الثاني: تعريف المستعربين اصطلاحا**

- **المستعربون:** مصطلح أطلق على الإسبان والنصارى الذين عاشوا في كنف الدولة الإسلامية واحتفظوا بديانتهم واستعربوا ثقافيا، وهو مصطلح يستحق الوقوف عنده لتوضيحه وتجليته، على الرغم من أنه لا جدال حول أصله العربي، وذلك لأن المصادر العربية الأندلسية لم تطلقه على هذه الطائفة من رعايا الدولة الأندلسية، إنما أطلقت عليهم أسماء تعبر عن أصولهم العرقية والثقافية، أو وضعيتهم السياسية والاجتماعية.

- ومن أبرز هذه الأسماء "العجم"-أي ذوي الأصول غير العربية، وقد كان هذا الاسم مقبولا ومستعملا بينهم، والدليل على ذلك ظهورهم متلقبين به في بعض الوثائق التي كتبوها في طليطلة (**TOLEDO**) بعد استرجاع ألفونسو السادس (**ALFONSO VI**) لها من بني ذي النون المسلمين في 27 من محرم عام 478 هـ / 25 مايو 1085 وانعتاقهم من التبعية للحكم الإسلامي-و**النصرانية**[1]، **والنصارى**[2]، **والروم**[3]، **والمشركون**، وهو اسم يشاركهم فيه نصارى دار الحرب[4].

[1]- ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، بيروت، ط. 3، 1983، ج 2، ص 170.

[2]- المصدر نفسه، ص 56-116.

[3] - ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط، 1972، ص 146-148.

[4] - ابن حيان، المقتبس..، ج5، ص 317.

➢ المطلب الثالث: ظهور المستعربين

تعريف المستعربين:

المستعربون هم نصارى الأسبان الذين عاشوا مع العرب في الأندلس وتعربوا وتبنوا في ظل الحكم الإسلامي كافة أوجه ثقافة الحكام، وكان لهم إسهام في الحضارة الأندلسية، وإن الاستعراب يمثل تأثير الثقافة العربية في غير المسلمين من الأسبان.

وتبنى المسيحيون في ظل الحكم الإسلامي كافة أوجه ثقافة الحكام إلا فيما يختص بالدين، لدرجة أنهم عرفوا "بالمستعربين" " Mozarabes ".

ولقد عرف هؤلاء النصارى في العصور الوسطى بالمستعربين ومازالوا يعرفون به حتى اليوم، وكانت اللاتينية هي اللغة التي يتكلمون بها ويتداولونها فيما بينهم، ويؤدون بها شعائر دينهم.

لفظ "مستعرب"، وجمعه مستعرَبون، لم يظهر في النصوص أو الكتابات الرسمية إلا في زمن متأخر على خلاف ما يظن، وربما كان اللفظ جاريا على الألسن في اللغة الدارجة، فأن هذا اللفظ لا يظهر فيما لدينا من كتب المؤرخين والجغرافيين والفقهاء وأهل الدب ومن إليهم، ولكنه ظهر في وثائق العقود الجارية بين الناس ابتداء من القرن الحادي عشر الميلادي، ثم في كتابات نصارى الأندلس سواء باللاتينية أو الأسبانية القديمة (عجمية الأندلس) ابتداء من القرن الحادي عشر أيضا، فإن استعمال هذه الكلمة في إسبانيا النصرانية لم يبدأ إلا عندما استولى ملوك النصارى على بلاد فيها أسبان نصارى

مستعربون، وخلال القرن الثاني عشر ظهرت الكلمة في وثائق النصارى الأندلسيين في البلاد التي استولى عليها النصارى، وكانوا يكتبون هذه الوثائق بالعربية.

لقد جرت مجانسة مجتمع خليط تحت الاسم العام للمستعربين، وتمت مساواته بواسطة مسطرة واحدة هي الدين: الدين النصراني على الرغم من أن السكان النصارى الذين مكثوا في ظل الحكم الإسلامي لم يكونوا من جنس واحد، لا في مستواهم الاجتماعي، ولا في مسلكهم.

فقد ضم اسم المستعربين ممثلي طبقة النبلاء من القوط الغربيين والأسر الرومانية العريقة النسب، كذلك ضم اسم المستعربين أغلبية من الخدم والمستوطنين وأبناء الطبقات الدنيا المنحدرين عن المجتمع الإسباني القوطي السابق.

الفصل الثالث: دورهم السياسي والفكري

- المبحث الأول: دورهم السياسي والفكري
- المطلب الأول: دورهم السياسي
- المطلب الثاني: دورهم الفكري

∞ المبحث الأول: دورهم السياسي والفكري

➢ المطلب الأول: دورهم السياسي

أولا: قبل الفتح الإسلامي

أما الحالة السياسية التي مرت بها اسبانيا في الثلاثين سنة الأخيرة من حكمها فبينت أنها هي الأخرى كانت سيئة وغير مستقرة، ففي عهد الملك Egica (678-702م) انعقد ثلاثة مجامع دينية هامة:

1.المجمع الديني الأول سنة 688م: وكان هدفه تسوية المنازعات القائمة بين هذا الملك الجديد وورثه سلفه الملك Ervig.

2.المجمع الديني الثاني في سنة 693م: ويدور حول محاكمة أسقف العاصمة طليطلة لأنه تزعم مؤامرة ترمي إلى اغتيال الملك وأسرته وبعض أنصاره، وقد قرر المجمع الاكتفاء بعزل هذا الأسقف من منصبه نظرا لمركزه الديني الكبير.

3. المجمع الديني الثالث 694م: وكان هدفه من الحكم في المؤامرة التي دبرها يهود اسبانيا بالاشتراك مع يهود المغرب لإسقاط الدولة القوطية والاستنجاد بالعرب، وقد أصدر هذا المجمع مرسوما بمصادرة أملاك اليهود، وفصل أنبائهم عنهم بعد سن السابعة، وتربيتهم في أوساط مسيحية حتى ينشا هؤلاء الأنباء نشأة مسيحية، وقد أثار هذا القرار غضب اليهود وحنقهم على الدولة الفاطمية.

وهكذا نرى مما تقدم أن اسبانيا فقدت وحدتها السياسية، كما فسدت حياتها الاجتماعية، في الوقت الذي ظهرت فيه العداوة المغربية المقابلة كقوة متماسكة تنتهر مثل هذه الفرصة المواتية للتدخل

في اسبانيا تحت راية الإسلام، ولكن كان لابد من وجود سبب مباشر يبرر هذا التدخل، هنا تختلف الرواية العربية عن الرواية الاسبانية حول هذا السبب المباشر الذي من اجله تدخل المسلمون في اسبانيا.

ثانيا: بعد الفتح الإسلامي

لقد أدى فتح المسلمين للأندلس تغيير الوضع الذي كان سائدا في الأندلس سياسيا عسكريا واجتماعيا وإداريا ودينيا، ونتج عن ذلك تغيير اجتماعي كبير شمل جميع أوجه النشاط التي كانت سائدة في الأندلس عندما طرقتها أقدام المسلمين.

ففي السياسة نجد المسلمين قد كسبوا إقليما جديدا أضافوه إلى رقعة دولتهم الواسعة وحققوا كسبا جديدا لدعوتهم ورسالتهم ولمواردهم أيضا وبذلك صار المسلمون هم ساسة البلاد وحكامها والمتصرفون في شؤونها العليا وتلك هي عادة المسلمين وسلوكهم مع الأقاليم التي يستولون عليها أما عدا وظائف الدولة العليا فإنهم يتركونها لأهل البلاد وخاصة الذين يثقون فيهم وذلك مما يؤدي على عدم وجود تنافر بين المسلمين وأهل البلاد، فإذا كان الفتح عن طريق الصلح فإنهم يشترطون في صلحهم النصح للمسلمين وألا يكون المصالح (الحاكم الإقليمي عونا للأعداء عليهم وإلا نقض ذلك الصلح ونجد هذا واضحا في صلح تدمير وهو يعطينا نموذجا حيا للوثائق السياسية الإسلامية في عهد الفتوح الإسلامية ونصه:" باسم الله الرحمن الرحيم من عبد العزيز إلى تدمير، انه نزل على الصلح وأنه له عهد الله وذمته أن لا ينزع عنه ملكه ولا أحد من النصارى عن أملاكه وأنهم لا يقتلون ولا يسبون أولادهم ولا نسائهم ولا يكرهوا على دينهم ولا تحترق كنائسهم ما تعبد ونصح، وأن الذي اشترط عليه

أنه صـالح على سـبع مدائن أوريولة وبلئتة ولقنت ومولة وبقسـرة وانه ولورقة وانه لا يأتي لنا عدوا، ولا يخون لنا عهدا ولا يكتم خيرا عمله، وانه عليه وعلى أصـحابه دينارا كل سـنة وأربعة أمداد قمح وأربعة أمداد شـعير وأربعة أقسـاط خل وقسـط عسـل وقسـطي زيت وعلى العبد نصـف ذلك، كتب في أربع من رجب سنة ارع وتسعين من الهجرة، شهد على ذلك...إلخ.

كما نجد أن طارقا عندما يفتح طليطلة يختار لحكمها وإدارتها أباس مطرانها السـاق وأخا الملك "وتيزا"، وقد عين المسلمون موظفين مسيحيين لجني الضرائب من أبناء طائفتهم وتسوية منازعاتهم وقد فتحت أبواب الوظائف العامة على اختلاف أنواعها يشـغلها الرجل الكفء سـواء كان مسـلما أو مسيحيا أو يهوديا[1].

وقد منح المسـلمون سـكان الأندلس حرية الإقامة أو الهجرة عن البلاد على أن ينزلوا عن جميع أموالهم ووعد من يبقون في البلاد بالمحافظة على أملاكهم وقضـاتهم وقوانينهم وبذلك يذكر المقري:" أن أولاد غيطشة قد حازوا ضياع والدهم اجمع واقتسموها على موافقة منهم، وإذا علمنا أن كل من استقر في أرضـه لم يهجرها أو صـالح أثناء الحرب فقد بقيت له أملاكه ودفع الجزية فغن لنا أن نقول أن أبناء غيطشـة قد سـالموا وحصـلوا على أملاك أبيهم وليس هناك عامل لخيانة الذي يركز عليه كثير من المؤرخين.

[1] د. محمد محمد زيتون، المسلمون في المغرب والأندلس، ص 180-181.

وقد كامن للوضع السياسي الذي أقامه المسلمون وشعر به الناس بالمساواة اثر كبير في القضاء على نظام النبلاء والكنيسة السابق وتبديد نفوذهم السياسي الذي كانوا يتحكمون به مقدرات الأندلس حسب أهوائهم وشهواتهم.

➢ المطلب الثاني: دورهم الفكري

انتشرت اللغة العربية انتشاراً واسعاً بين الأسبان المعايشين للعرب، ولم يكن قد مضى على الفتح العربي نصف قرن من الزمن، وكانت هناك ازدواجية لغوية عربية ورومانية بين عامة الشعب الأندلسي، وأصبحت العربية الفصحى لغة الثقافة للاسبانيين، والى جانبها اللاتينية الفصحى، وكان مجال استعمالها ضيقاً. وبقيت اللغة العربية الاسبانية حتى القرن السادس عشر الميلادي في اسبانيا أي بعد إنهاء الحكم العربي الإسلامي في الأندلس بعد سقوط غرناطة سنة 897 هـ / 1492م.

وشيئاً فشيئاً ومن خلال الاحتكاك والتعايش بين مختلف شرائح المجتمع الأندلسي *، طيلة حكم ثمانية قرون، وفرّ للأسبان وغيرهم سبل الأخذ عن المسلمين، بشكل مباشر وغير مباشر وتحقق من بلاد الأندلس تواصل حضاري بين العالمين المتصارعين، ذلك التواصل الذي شمل أوربا برمتها.[2]

* – كان المجتمع الأندلسي مكوناً من عناصر وأجناس مختلفة، مسلمة، ضمت العرب الفاتحين، والمسالمة أو الأسالمة وهم الإسبان الذين دخلوا الإسلام بعد الفتح، والمولدين من أبناء الأسالمة وهم الإسبان الذين ولدوا من أباء عرب مسلمين وأمهات اسبانيات، وقد ازداد هؤلاء عددهم بالتدريج حتى أصبحوا يكونون معظم سكان الأندلس. وغير مسلمة من أصحاب الديانات الأخرى النصارى–اليهود–عاشوا جميعهم في مجتمع يضلله التسامح التام–والاعتبار فيه للكفأة والمؤهلات ولذلك ظهرت في أصحاب هاتين الديانتين مفكرون وعلماء وسفراء، ونشأت طبقة من نصارى الأندلس تسمى بـ (المستعربين) احتفظوا بديانتهم النصرانية، وتعلموا اللغة العربية وتثقفوا بالثقافة الإسلامية.

[2] – مارغريتا، إسهامات حضارية، الحضارة العربية: 1478/2.

عدت الأندلس أهم أحد المعابر الثلاثة التي تمت خلالها عملية الإخصـــاب بين الفكر العربي الإسلامي والفكر الأوربي، المعبر الأول صقلية وجنوب ايطاليا، والمعبر الثاني مصر وبلاد الشام، والمعبر الثالث الأندلس، فهي نقطة التلاقي بين الثقافة العربية الإسلامية الزاهرة وبين العقلية الأوربية الناشئة، لأنها تقع على الحدود بين بلاد الإسلام وبلاد أوربا[1].

كانت طرق التواصل بين الأندلس وأوربا سهلة، وتمثلت بصور وأشكال متعددة، مباشرة وغير مباشرة، وهي:

أولاً : البعثات الأوربية الشخصية والرسمية التي توافدت على مراكز الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، فقد حمل العرب المسلمون طيلة فترة مكوثهم في اسبانيا مشعل العلم والحضارة، واعتمدت جميع مراكز التعليم في أوربا على قرطبة واشبيلية وطليطلة وغرناطة، حيث كان الطلاب يشدون الرحال إليها ويقضـــون الســـنوات الطوال في الدراســـة والتتبع، والاطلاع على مؤلفات العرب فيها، وكان في مقدمة هؤلاء الراهب الفرنســـي (جربرت دي اورياك) الذي وفد إلى الأندلس في عصـــر الخليفة الحكم المستنصر (350-366 هـــ / 961 – 976مـــ)، ودرس على أيدي العلماء المسلمين الرياضيات والفلك والكيمياء، وحينما عاد إلى وطنه بعد ان بلغ من العلم مبلغا خيّل لعامة فرنســـا إذ ذاك انه ســـاحر[2]. فقد كان من أوائل المهتمين بالثقافة العربية، والمضـــمون التجريبي للعلم، وقد تمكن فيما بعد

[1] – السامرائي، دراسات في تاريخ الفكر العربي، ص384.

[2] – جلال مظهر، حضـــارة الإســـلام، ص497، جوزيف رينو، تاريخ غزوات العرب، ترجمة وتعليق: شـــكيب ارســـلان (بيروت، 1966)، ص296.

بفضل مواهبه العقلية ان يتربع عرش البابوية في روما تحت اسم سيلفستر الثاني (390 – 394 هـ / 999 – 1003 مـ) وكان له الدور البارز في نشر علوم العرب في أوربا وهو أول من ادخل التعليم الدنيوي ودافع عنه على أسس تقدمية[1].

كما وجدت نسخة لاتينية من حكم ابقراط كانت تستخدم في التدريس في مدينة شارتر بفرنسا عام 382 هـ / 991 مـ فعللت هذه الظاهرة بوجود نفوذ عربي مبكر في فرنسا، لان هذه النسخة كانت عن أصل عربي، ذلك لان الغرب اللاتيني كان يجهل في هذا العصر جهلاً تاماً أي شيء من الأصول اليونانية لأعمال اليونان القدماء[2].

وقد استنتج من قبل بعض المؤرخين المحدثين افتراضا من ظروف هرمان الكسيح (1013-1054مـ) وهو ابن أمير دالماسيا من أصل سويسري، وقد كتب في الرياضيات والتنجيم عن تأثير الحضارة العربية الأندلسية، فهذا الأمير لظروفه المرضية لم يزر الأندلس، إلا انه استفاد من ترجمات لأعمال عربية كالتي وجدت في شارتر أو التي عملت لجربرت، واستفاد ثانياً من الطلاب الأوربيين العائدين من الأندلس إلى أوطانهم، بعد ان انهوا دراستهم في الجامعات العربية، والذين كانوا يمرون

[1] – خليل إبراهيم السامرائي وآخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، (بنغازي، دار المدار الإسلامي، 2004) ص477، عبد الرحمن الحجي، الحضارة الإسلامية في الأندلس، ص49 50، جلال مظهر، حضارة الإسلام، ص497.

[2] – المرجع نفسه، ص 501-502.

بدير(ريختاو) الذي يقيم به هرمان ويقضـون فيه فترة قبل رجوعهم إلى بلادهم، وعن هؤلاء نقل هرمان كل ما جلبوه من الآلات الفلكية العربية وفي مقدمتها الإسطرلاب[1].

كما أرســـلت إلى الأندلس بعثات ذات طابع رسمي من قبل حكومات بعض الدول الأوربية، وأخذت هذه البعثات تتوالى على الأندلس بأعداد متزايدة سنة بعد أخرى، حتى بلغت سنة 312 هـ / 924 مـــ، في عهد الخليفة الناصر زهاء سبعمائة طالب وطالبة[2]. وكانت إحدى هذه البعثات من ألمانيا، ففي سنة 313 هـ / 925 مـ أرسل ملك ألمانيا اوتو الكبير، الراهب (جون) إلى قرطبة مبعوثاً إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر وأثناء مكوثه فيها لمدة ثلاث سنوات تعلم العلوم والثقافة العربية، وحمل معه المخطوطات العلمية العربية وتوجهت بعثه من فرنســا برئاســة الأميرة (إليزابيث) ابنة خال الملك لويس السـادس ملك فرنسـا. وبعث فيليب ملك بافاريا إلى الخليفة هشـام المؤيد (366 – 399 هـ /976-1009 مـــ) بكتاب يطلب منه أن يأذن له بإرسـال بعثة من بلاده إلى الأندلس للاطلاع على مظاهر التقدم الحضـاري فيها والاسـتفادة منها، فوافق الخليفة هشـام، وجاءت بعثة هذه الملك برئاسـة وزيره المدعو (ويلميين) الذي يسـميه العرب وليم الأمين[3]. وقد تألفت هذه البعثة من (215) طالباً وطالبة وزعوا على جميع معاهد الأندلس لينهلوا من مواردها الثقافية، وتذكر الروايات بان ثمانية

[1] – زيغريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة: فاروق بيضون وكمال دسوقي (بيروت، منشورات المكتب التجاري، د.ت)، ص140، خليل السامرائي وآخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ص477.

[2] – المرجع نفسه، ص477.

[3] – السـامرائي، دراسـات في تاريخ الفكر العربي، ص386، السـامرائي وآخرون، تاريخ العرب وحضـارتهم في الأندلس، 477، 478.

من أفراد هذه البعثة اعتنقوا الدين الإســـلامي ومكثوا في الأندلس ورفضـــوا العودة إلى بلادهم، ومن ضــمن هؤلاء الثمانية ثلاث فتيات تزوجن بمشــاهير من رجال الأندلس في ذلك الوقت، وأنجبن عدداً من العلماء كان منهم عباس بن مرداس الفلكي.

وسـار ملوك آخرون من أوربا على هذا النهج، فقد أوفد ملك ويلز بعثة برئاسـة ابنة أخيه كانت تضم ثمانية عشرة فتاة من بنات الأشراف والأعيان، وقد وصلت هذه البعثة مدينة اشبيلية برفقة النبيل (سفيلك) رئيس موظفي القصر في ويلز الذي حمل رسالة من ملكه إلى الخليفة هشام المعتد بالله الذي خلع عام 422 هـــ/ 1030مـــ وكان هدف هذه البعثة كما تقول الرسالة: ((فقد سمعنا عن الرقي العظيم الذي تتمتع بفيضـه الصـافي معاهد العلم والصـناعات في بلادكم العامرة فأردنا ولأبنائنا اقتباس نماذج هذه الفضائل لتكون بداية حسنة في اقتفاء أثركم لنشر أنوار العلم في بلادنا التي يسودها الجهل من أربعة أركان ...)). وقد اسـتقبل خليفة الأندلس البعثة أحســن اسـتقبال، ورد على رسـالة ملك ويلز، وقد حظيت هذه البعثة باهتمام رجال الدولة الذين قرروا أن يتم الإنفاق على هذه البعثة من بيت مال المسلمين[1].

وفي الوقت نفسـه قام بعض ملوك أوربا باسـتقدام علماء الأندلس لتأسـيس المدارس ونشـر ألوية العلم والعمران، ففي خلال القرن الثالث الهجري، التاسـع الميلادي وما بعده وّقعت حكومات هولندة وسـكسـونيا وانكلترا على عقود مع حوالي تسـعين من الأسـاتذة العرب في الأندلس بمختلف العلوم،

[1] – السامرائي، دراسات في تاريخ الفكر العربي، ص 386-387.

وقد اختير هؤلاء من بين أشهر العلماء الذين كانوا يحسنون اللغتين الاسبانية واللاتينية إلى جانب اللغة العربية[1]. ووقعت تلك الحكومات عقوداً أخرى مع حوالي مائتي خبير عربي في مختلف الصناعات ولاسيما إنشاء السفن، وصناعة النسيج والزجاج والبناء وفنون الزراعة. ولقد قام بعض المهندسين العرب أكبر جسر على نهر التايمس في انكلترا عرف باسم (جسر هليشم Helichem) وهذه الكلمة تحريف لكلمة هشام خليفة الأندلس الذي أطلق الانكليز اسمه على هذا الجسر عرفاناً بفضله لأنه أرسل إليهم أولئك المهندسين العرب. وكذلك كان المهندسون العرب هم الذين شيدوا قباب الكنائس في بافاريا، ولا تزال توجد بإحدى المدن الألمانية (شتوتغارت) حتى اليوم سقاية ماء تدعى (أميديو Amedeo) وهو تحريف لكلمة احمد المهندس العربي الذي بناها[2].

ثانياً: خزائن المدونات في أديرة اسبانيا، ولاسيما دير سانتا ماريا دي ريبول الذي اقتنى بين القرنين السادس والسابع الهجري / الثاني عشر والثالث عشر الميلادي أعداداً كبيرة من المؤلفات العلمية العربية، لترجمتها من قبل رهبان الدير الذي انحدر العديد منهم من أصل مستعرب[3].

ثالثاً : المستعربون الذين كانوا يمثلون عنصراً فعالاً في الحياة الأندلسية، في نقل الحضارة العربية إلى اسبانيا النصرانية، فالعصور الوسطى الاسبانية لم تكن تعرف الانفصال الجغرافي ولا العنصري بين المسلمين والنصارى حيث كانوا متعايشين سوية بروح التسامح، والمستعربون بحكم معرفتهم للغتين

[1] – المرجع نفسه، ص387.

[2] – المرجع نفسه، ص387، وينظر: عبد الرحمن الحجي، الحضارة الاسلامية في الاندلس، ص58.

[3] – مارغريتا، اسهامات حضارية، الحضارة العربية في الاندلس: 1487/2.

العربية واللاتينية الحديثة كانوا أداة اتصال بين شطري اسبانيا، وهم منذ الفتح العربي الإسلامي لم ينقطعوا عن الهجرة إلى المناطق الشمالية في اسبانيا حيث إخوانهم النصارى، وقد ازدادت هجرتهم في القرن السادس والسابع الهجري / الثاني عشر والثالث عشر الميلادي على عهد دولتي المرابطين والموحدين، فقد هاجر سكان بلنسية منها إلى قشتالة في عام (496 هـ / 1102مـ)، وخرجت طائفة كبيرة من غرناطة مع جيش الفونسو الأول المحارب ملك ارغونة عام 519 هـ /1125مـ وكما خرجت طائفة أخرى من اشبيلية إلى قشتالة عام 541 هـ / 1146مـ وقد كان شأن هذه الهجرات وأمثالها انتشار الثقافة الإسلامية العربية بين نصارى الشمال الاسباني[1].

رابعاً: التجار والعلاقات التجارية المتواصلة، فالتجار المسلمين الذين ظلوا قروناً يتاجرون مع الكثير من البلدان الأوربية، ولقد دلت التنقيبات أخيراً على وجود عملات إسلامية في أوربا الشمالية حتى فلندا[2].كما لا ننسى الرحالة المسلمون الذين طافوا في مختلف أنحاء العالم ومنها أوربا أثر في نشر الحضارة العربية الإسلامية، ثم فيما أنتجته رحلاتهم من تراث جغرافي أو كتابات تخص تلك الشعوب والأقطار التي زاروها، كرحلة ابن فضلان وأبو عبيد البكري[3].

خامساً: التقارب السياسي والعلاقات الدبلوماسية، حيث سعت العديد من الدول الأوربية إلى توطيد العلاقات مع الدول العربية الإسلامية في الأندلس لاسيما في عصر الخلافة الأموية، في عهد

[1] – مارغريتا، إسهامات حضارية، الحضارة العربية: 1478/2.

[2] – سعيد عبد الفتاح عاشور، المدنية الاسلامية وأثرها على أوروبا (القاهرة، 1963)، ص184، مارغريتا، اسهامات حضارية، الحضارة العربية: 1478/2.

[3] – عبد الرحمن الحجي، الحضارة السلامية، ص33.

الخليفة عبد الرحمن الناصر الذي اجتمعت في شخصه مواهب عدة أهلته لان يكون حاكماً ناجحاً، فهو سياسي مرن وقائد شجاع وإداري صلب، تمكن من خلق نظام قوي ومتين داخل الأندلس، وتحقيق سمعة سياسية في الخارج، أهلته لان يكون موضع إعجاب وتقدير الشخصيات المعاصرة له والتي سعت إلى صداقته وإقامة علاقات ودية معه[1] وكانت الدولة البيزنطية في مقدمة الدول الساعية إلى توطيد العلاقات مع الأندلس، وقد عاصر الخليفة الناصر من أباطرة بيزنطة الإمبراطور قسطنطين السابع المشهور عنه اهتمامه بالعلوم والآداب وكتب الأقدمين، وقد وصلت سفارتين من الدول البيزنطية إلى الأندلس كانت الأولى سنة 336 هـ/ 947م، حيث بالغ الناصر في تزيين بلاطه والاحتفال بالسفراء[2] ورافقت هذه السفارة في طريق العودة بعثة من قبل الدول العربية في الأندلس كان على رأسها هشام بن هذيل يحمل جواباً من خليفته الناصر يؤكد على توثيق العلاقات بين البلدين، وقد استغرقت سفارة ابن هذيل قرابة السنتين عاد بعدها إلى الأندلس[3] وقيل : انه عاد صحبة سفارة ثانية سنة 338 هـ/ 949م للإمبراطورية البيزنطية[4] استقبلت بمثل حفاوة ما استقبلت السفارة الأولى[5].

[1] – إبراهيم بيضون، الدولة العربية في اسبانيا (بيروت، 1978). ص307، السامرائي وآخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الاندلس، ص174.

[2] – ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر (بيروت، مؤسسة جمال للطباعة والنئر، 1979): 142/4، المقري، نفح الطيب، تحقيق: احسان عباس (بيروت، 1968):364/1.

[3] – ابن خلدون، العبر: 142/4.

[4] – المصدر نفسه: 143/4.

[5] – ابن عذاري، البيان المغرب، تحقيق: ج.س.كولان وليفي بروفنسال (بيروت، دار الثقافة، 1980): 215/2.

ومن نتائج هذه السفارات دخول المؤلفات المهمة إلى الأندلس ككتاب الحشائش في الطب والصيدلة لديسقوريدس وكتاب هروشيش في التاريخ الذي يحوي أخبار الروم في العصور القديمة، وقد استعانت الخلافة الأندلسية بالدول البيزنطية من اجل ترجمة هذين الكتابين[1] ونقل أكثر من مائة سارية وتحف غريبة استخدمت في بناء وتزيين مدينة الزهراء[2].

وحرصت الدولة الرومانية المقدسة على إقامة علاقات دبلوماسية مع الدولة العربية الإسلامية في الأندلس، فقد وصلت سفارة من قبل الإمبراطور الألماني اوتو الكبير، إلى الأندلس سنة 342 هـ / 953 م، وكانت برئاسة الراهب جان دي جورز، وهو احد علماء عصره في البحث والمناظرة[3] ولكن ممثل الإمبراطور لم يكن على قدر من السلوك الدبلوماسي، فقد وصلت إلى مسامع الخليفة الناصر أن السفير يحمل رسالة تضم عبارات تمس مقدسات العقيدة فرفض مقابلته، وتم الاتفاق على إرسال سفارة عربية إلى اوتو الكبير تطلب منه تغيير سفارته، وأوكل هذه المهمة إلى احد المستعربين الذين يجيدون اللغة اللاتينية إجادة تامة ويدعى رثموندو أو ربيع بن زيد – إذ كان من عادة المستعربين اتخاذ الأسماء العربية إضافة إلى أسمائهم الأجنبية – وقد استقبلت هذه البعثة من الإمبراطور في بلاطه بمدينة فرانكفورت، وأنهت مهمتها بنجاح وعادت إلى الأندلس برفقة سفارة ألمانية جديدة حملت توجيهات

[1] – احمد بدر، تاريخ الاندلس، (عصر الخلافة) (دمشق، 1974)، ص139، عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة في الاندلس (بيروت، 1972): 166/2.

[2] – المقري، نفح الطيب:1 /566، وينظر السامرائي واخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الاندلس، ص175-158.

[3] – عبد الله عنان، دولة الاسلام في الاندلس: 457/2.

محددة إلى السفارة السابقة[1] وتمكن السفير ربيع بن زيد (رثموندو) أثناء تواجده في ألمانيا، من لقاء المؤرخ الألماني لوتيراند، وحثه على وضع كتاب في التاريخ يهتم بإخبار وحوادث العصر[2].

كما كانت للممالك الاسبانية الشمالية علاقات دبلوماسية مع حكومة قرطبة على الرغم من أن الصراعات العسكرية هي التي كانت غالبة على العلاقة بين الطرفين، إلا أن هذه الممالك كانت تدخل في وفاق عندما تكون عاجزة عن القيام بأي فعل عسكري تجاه الدولة العربية في الأندلس[3] وحتى الحروب التي كانت دائرة بين الطرفين لعبت دوراً في التلاقح الفكري، من خلال الأسرى، إذ ما لبث البعض من أسرى المسلمين من علماء وأطباء أن تحولوا للعمل في بلاط أمراء الأسبان، وفي الجانب الأخر أيضاً وقع بعض أسرى الأوربيين بيد المسلمين، وعندما فك أسرهم نقلوا ما سمعوه وشاهدوه من تقدم حضاري في الأندلس.

سادساً: حركة الترجمة، والتي تعد قناة غير مباشرة، ولكنها أثرت تأثيراً كبيراً في نقل أوربا من عصر الظلام والتخلف إلى عصر الانبعاث والتقدم[4].

مرت حركة الترجمة بدورين، الدور الأول : والتي تمت فيه ترجمة الكثير من المخطوطات إلى العربية بما في ذلك كتاب في علم الزراعة، كتبه (كولوميلا) وكتاب تاريخ عام ألفه (اوروسيوس)، وكتاب

[1] – المرجع نفسه:457/2.

[2] – احمد بدر، تاريخ الأندلس، ص142، وينظر: السامرائي وآخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ص176، 177.

[3] – إبراهيم بيضون، الدولة العربية في اسبانيا، ص312، مارغريتا، إسهامات حضارية، الحضارة العربية في الأندلس: 1478/2.

[4] – للمزيد من التفاصيل: ينظر: السامرائي، دراسات في تاريخ الفكر، ص384-388، مارغريتا، إسهامات حضارية، الحضارة العربية في الأندلس:1478/2.

يبحث في التنجيم، وآخر في الاشـــتقاق لمؤلفه (ايزدور)، وقد وقع على عاتق النصـــارى أحيانا القيام ببعض هذه الترجمات، كما وتم ترجمة عدد كبير من المؤلفات إلى العربية لفائدة العناصـر المسـتعربة من النصـارى، وليس للمسـلمين فقط، فقد تمت ترجمة ثلاث نسـخ من المزامير، من بينها واحدة ترجمها حفص القوطي في سنة 276 هـ / 889 مـ شعراً، وكان المقصود بها خصيصاً أن تحل محل نسخة نثرية غير فصيحة كانت دارجة الاستعمال في ذلك الوقت، وكذلك تمت في سنة 357هـ/ 967 م ترجمة تقويم كنسي ألحق بأخر عربي يبحث في تقسيم السنة على أساس الثماني والعشرين دورة فلكية المعروفة باسم (منازل القمر)، وأطلق على الترجمة اسم (تقويم قرطبة)[1].

أما الدور الثاني، فيشـمل الترجمة من العربية إلى اللاتينية، ويبدأ من منتصـف القرن الخامس إلى أخر القرن السـابع الهجري / منتصـف القرن الحادي عشـر إلى أخر القرن الثالث عشـر الميلادي، وقد مر هذا الدور بمرحلتين الأولى تمت فيها ترجمة العلوم العربية المنقولة عن العلوم اليونانية، والمرحلة الثانية ترجمة العلوم العربية الإسلامية.

كانت أوربا لا تمتلك من العلم اليوناني إلا القليل تمثل بمختصـــرات هزيلة وضـــعت منذ القرن الخامس الميلادي والى القرن الثامن الميلادي، لذا بقيت الدراسـة في أوربا ضـئيلة محصـورة في فئة قليلة

[1] – عمران ابو حجلة، الحضـارة العربية الاسـلامية في الاندلس، تحرير: سـلمى الخضـراء الجيوسـي (ط2، بيروت، مركز دراسـات الوحدة العربية، 1999): 1442/2.

من الرهبان، ولم تنتعش وتتطور إلا بعد تمثلها للعلوم العربية ولاسيما التي تشمل على أصول علوم اليونان التي ترجمها العرب المسلمين في عصر ازدهار حضارتهم[1].

بعد ان استرد الأسبان بقيادة الفرنسو السادس طليطلة عام 478هـ/ 1085 م، واتخاذها كعاصمة لمملكة قشتالة، قامت فيها حركة ترجمة نشيطة فقد امتازت هذه المدينة بكثرة مكتباتها، والتي حوت ألاف من المجلدات التي انتقلت إليها من المشرق، فضلاً عن ذلك بقاء الثقافة العربية فيها حتى بعد ان استردها الأسبان، وقد تم القيام بتخطيط برنامج شامل للترجمة عن طريق تأسيس معهد لترجمة الأعمال العربية إلى اللاتينية، ويرأسه كبير الشمامسة في طليطلة المدعو (دومينيكوس غونديسينوس) والذي يذكر بالمصادر العربية بـ(دومنجو غنصالفة) والذي برز نشاطه ما بين عام 1130والى عام 1180 م، والذي يعد من أشهر رجال الترجمة في العصر الوسيط من العربية إلى اللاتينية عن طريق الاسبانية العامية، فقد كانت الطريقة في الترجمة ان يقوم يهودي مستعرب – من اشهرهم في معهد الترجمة بطليطلة أبراهام بن غزرا – بترجمة النص العربي شفوياً إلى اللغة الاسبانية العامية ثم يتولى غنصالفه الترجمة اللاتينية، ومن بين ما ترجمه غنصالفة على هذا النحو بعض مؤلفات الفارابي، وابن سينا، والغزالي[2].

[1] – عبد الرحمن بدوي، دور العرب في تكوين الفكر الاوربي (بيروت: 1979)، ص7.

[2] – جلال مظهر، حضارة الاسلام، ص523، دي سي، اوليري، الفكر العربي ومركزه في التاريخ، ترجمة: اسماعيل البيطار (بيروت: 1972)، ص234.

وكان يعمل بمعية غنصـــالفة عدد من المترجمين توجهوا من أنحاء أوربا إلى طليطلة منهم الايطالي (جيرار الكريموني) الذي وصـــف بأنه ((الشـــماس)) في إحدى وثائق كادرائية طليطلة المؤرخة في 11 آذار مارس 1162 م، حيث يدعى (جيرادوس المعلم) في وثيقتين أخريين من وثائق الكاتدرائية بتاريخ آذار/ مارس 1174 م، وآذار/ مارس 1176 م، والوثائق الثلاثة ممهورة بتوقيع غنصالفة

وقد قام جيرارد بترجمة كتاب الفارابي (تصـنيف العلوم)، وترجم عدة مؤلفات لأرسـطو، وبعض الشروح على ارسطو لمؤلفين عرب ومؤلفين إغريق سبق وان ترجمت اعمالهم إلى العربية، كما ترجم ةعن العربية كتباً لأبقراط وجالينوس، وترجم كتابين اصـيلين في العربية هما (القانون في الطب لابن سـينا)، وكتب التصريف للزهراوي الذي يعد القسم الأخير منه أشهر بحث في الجراحة[1].

واشترك (غنصالفة) مع رفيقه (افيندوف)، و(جوهان الاسباني) بترجمة مصنفات الدارسين العرب واليهود الذين لخصـوا، واعادوا ترجمة فلسـفة ارسـطو، كمؤلفات ابن سـينا، وابن جيبيرول، والغزالي وشـاركه أيضـا المترجمان الانكليزيان (روبرت القيطوني وادلار الباثي) فقد اشـتهر ادلار الباثي بترجمة جداول علم الفلك لمسلمة المجريطي عام 1126 م[2].

استمر نشاط حركة الترجمة في طليطلة في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، وهناك دليلان على هذا النشاط. الدليل الأول : نقل حصيلة ذلك الازدهار في الفلسفة فـــي اسبانيـــا

[1] – جلال مظهر، حضارة الاسلام، ص 523.

[2] – عبد الرحمن بدوي، دور العرب في تكوين الفكر الاوربي، ص 8-9.

الإسلاميــة ففي عهد سيطرة الموحدين على المغــرب والأنــدلس (543 – 668هـ / 1146-1269م) حدثت ثورة أصـــولية ارســـطوية لم يســـبق لها مثيل في أي مكان أخر من العالم العربي الإسـلامي، وكانت الشـخصـية الرئيسـية في هذا المشـهد ابن طفيل (ت: 581 هـــ / 1185 م) الطبيب الرسمي في بلاط زعيم الموحدين في قرطبة، ومؤلف الرواية الفلســـفية (حي بن يقظان)، وقيام البطروجي بتأليف كتاب سماه باسم (حركات الإجرام السماوية) المكتوب حوالي (600هـ / 1200 م) والكتاب محاولة ثورية في علم الفلك تدعو إلى اســـتبعاد نظام بطليموس القديم حتى يحل محله أنموذج يتفق مع (فيزيقيا) أرســطو، ثم قيام ابن رشــد (ت : 594 هـــ / 1198 م) عقب ذلك بالمشــروع الأكثر طموحا وهو يضــع ثلاثة مســتويات من الشــروح والتعليقات على جميع مصــنفات أرسطو، وأضاف إليها فيما بعد تعليق على جمهورية أفلاطون، ومع أن الارسطوطاليسية الأندلسية لم تترك إلا أثراً في الدراســات العربية الإســلامية اللاحقة، إلا إنها تركت أثرا قليلا في الفلســفة اللاتينية والعبرية والعلوم الأخرى، وفي هـذا المنـاخ الثقـافي في قرطبـة، تشـــكلت فلســـفـة ابن ميمون (ت: 600هت/1204م) وبعد سـنوات معدودات على تأليف مصـنفات كل من البطروجي، وابن رشـد تمت ترجمتها إلى اللاتينية والعبرية، حيث قام بالترجمات الأولى في اسبانيا (مايكل سكوت) واليه تعزى أقدم ترجمة لابن رشد، والتي بدأها في اسبانيا ثم استكملها حين انتقل إلى ايطاليا.

والدليل الثاني: نشأة الترجمة الرسمية والمقصود بها القيام بالترجمة بصفتها جزءاً من السياسة العامة للدولة، أما بهدف تفخيم الأمة الاسبانية الحديثة الظهور، أو بهدف رد المسلمين الإسبان إلى النصرانية وربط الكنائس الشـــرقية بروما بعد توحيدها، ولتحقيق ذلك، كان لا بد من تعلم العربية، فقد أطلع

بطرس الجليل (رئيس دير كلوني) أثناء زيارته إلى اســـبانيا في مهمة دينية عام 1141م على بدايات الصـراع المرير بين الإسـلام والنصـرانية في الأندلس، وكان ذلك أثناء حكم الموحدين وتوصـل إلى أن القوة المسـلحة لوحدها لا تجدي نفعاً في محاربة الإسـلام، وإنما ينبغي اللجوء إلى المنطق، وذلك بفهم الخصم أولا، والإصغاء إلى حججه وجدله ثانياً، وبما أن القرآن الكريم هو المرجع الأول لدى المسلمين، فقد تعين على الأوروبيين فهمه ولتحقيق هذه الغاية قام بطرس الجليل بتكليف (روبرت القطيوني) بترجمة القرآن إلى اللاتينية وأجزل له العطاء، وقد لقيت ترجمته رواجاً واسعاً[1].

هذا فضـــلاً عن قيام بطرس الجليل بشـــراء كل المخطوطات المترجمة من قبل هرمان الكارنثي، وروبرت القطيوني وبيتر الطليطلي، والتي تعرف بـــــ (مجموعة طليطلة) والتي هي عبارة عن ترجمات لمخطوطات عربية عن الإسلام، كما ضمت القرآن الكريم وحياة الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم)، ووصفاً للخلفاء الأولين، ومناظرة بين رجل نصراني ومسلم تعرف بـ(مناظرة الكندي)، وقد بقيت هذه الترجمات مرجعاً ثميناً للغربيين الذين يودون فهم الإسـلام، ففي القرن السـابع عشـر الميلادي كانت لا تزال ترجمة روبرت القطيوني للقرآن الكريم مسـتعملة لدى البعثات التبشـيرية النصـرانية، كما غدا رد الكندي في المناظرة المشهورة شائعاً في العصر الحديث.

وبعد مرور خمس سنوات على هزيمة الموحدين في معركة العقاب عام 609هـ\1212م، والتي تعد بداية النهاية لسـلطة الموحدين في الأندلس توالى سـقوط حواضـر الأندلس الواحدة تلو الأخرى

[1] – عبد الرحمن بدوي، دور العرب في تكوين الفكر الأوربي، ص، .10غوستاف لويون، حضارة العرب، ص677.

كقرطبة واشبيلية ولم يبق سوى غرناطة مملكة إسلامية وحيدة، انتاب شعوراً عظيماً بالثقة لأساقفة وملوك الإسبان لجعل شبه جزيرة كاملة في اسبانيتها ونصرانيتها، فانتشرت حركة الترجمة من العربية إلى الاسبانية ولا سيما في عهد الملك الفونسو العاشر الحكيم، ملك ليون وقشتالة (1252-1284م)، فترجمت كتب كليلة ودمنة، وعشرات من كتب الفلك ولم تكن لغة الترجمات هي الاسبانية فحسب، بل لقد جعلها تبدو وكأن المؤلفين أنفسهم كانوا من الإسبان أيضا.

فقد سمي كتاب "غاية الحكيم" في التنجيم لمسلمة بن احمد المجريطي(ت:397هـ\1007م) مثلاً بـ "الحكيم الاسباني" وكان لهذا أثره في قيام اللغة الاسبانية أولا، ومن ثم تقدم الدراسات العلمية في اسبانيا وانتقالها إلى أوروبا ثانيا، وأنشأ الفونسو الحكيم عام 1254م جامعة اشبيلية وخصصها لدراسة العربية واللاتينية[1].

تركز سيل الترجمة بشكل أولي من موضوعات العلوم العقلية، ففي مجال الرياضيات فان الغرب مدين للحضارة الإسلامية بمعرفة الأرقام وبضمنها الصفر الذي حل مشاكل كثيرة في العمليات الرياضية، وكان أول من اخذ بالأرقام العربية (جربرت دي اورياك) وادخلها أوروبا، وبعدها ألف كتاب يشرح فيه استخدام الأرقام العربية، وبعد فترة من الزمن تبنت أوروبا الأرقام العربية نتيجة أعمال (ليوناردو دي بيزا) الذي توفي عام 1240م، والذي درس الرياضيات على يد معلم عربي في المغرب

[1] – جلال مظهر، حضارة الإسلام، ص524، عبد الرحمن بدوي، دور العرب في تكوين الفكر الأوربي، ص10، هونكة، شمس العرب تسطع على الغرب، ص126وما بعدها.

العربي، وأصدر كتاباً يشرح فيه نظام الأرقام العربية عام 1202م، وكان ذلك بداية تبني أوروبا للأرقام العربية وبداية علم الرياضيات الأوروبي[1].

ومن أشهر الرياضيين العرب الذين عرفتهم أوروبا وترجمت مؤلفاتهم إلى اللاتينية الخوارزمي الذي اشتهر في أوروبا بكتابه (الجبر والمقابلة) الذي ترجمه إلى اللاتينية (روبرت الشستري) عام 1145م، وظل هذا الكتاب يدرس في المدارس والجامعات الأوروبية حتى القرن السادس عشر الميلادي، ومن علماء العرب الذين لهم الفضل في مجال الجبر أبو بكر محمد بن جسن الكوجي (ت:407هـ\1016م) صاحب كتاب (الفخري في الجبر والمقابلة)[2].

وطور العرب علم الهندسة والمثلثات الكروية وحققوا تقدماً واضحاً وقاموا بترجمة كتاب إقليدس في الهندسة، وهذه الترجمة العربية نقلها الأوربيون إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر الميلادي، وظلوا يتدارسونها إلى أواخر القرن السادس عشر عندما عثروا على مخطوط من كتاب إقليدس باللغة اليونانية.

ومن علماء العرب الذين اشتهروا في هذا المجال جابر بن افلح الذي برز اسمه عام 545هـ\1150م تقريباً في مؤلفه "حول حساب المثلثات الكروية"، وقاضي جيان، أبو عبد الله محمد بن معاذ الجياني (ت: 486هـ\1093م) وأحرز أميران من أسرة بني هود بسرقسطة شهرة عظيمة لمواهبهما في الرياضيات والهندسة هما احمد المقتدر بالله، وأبنه يوسف المؤتمن الذي صنف كتاباً

[1] – جلال مظهر، المرجع سابق، ص78.

[2] – السامرائي، دراسات في تاريخ الفكر العربي، ص 402.

شاملاً في الهندسة سماه (الاستكمال) اعتمد فيه على عدد كبير من المصادر بما فيه المبادئ لإقليدس، والبيان والأفلاك لثيودسيوسش ومنيلادس، والمخروطات لأبولونيوس، وكتاب ارخميدس في الكرة والاسطوانة، وشروح اوتيكيوس على كتاب ارخميدس في الكرة والاسطوانة كما اعتمد مقالة ثابت بن قرة في الأعداد المتآلفة، وكتاب البصريات لأبن هيثم، ولم تكن معالجة الأمير يوسف المؤتمن للمسائل الهندسية مقتصرة على مجرد إعادة إنتاج ما في المصادر التي اعتمد عليها، وإنما قدم في كثير من الحالات حلولاً أصيلة تثبت انه كان هندسياً بارعاً. وقد ترجم كتابه الاستكمال إلى اللاتينية من قبل المترجم هوغو الشنتالي. ومن علماء العرب الآخرين في علم المثلثات إبراهيم بارحيا (ت: حوالي 531هـ\1136م) الذي صنف كتاباً في علم المثلثات، ترجمه أفلاطون التيفولي، وجعل عنوانه "كتاب المساحات".

وفي مجال علم الفلك والتنجيم، كان الإرث الأندلسي غني في هذا المجال وكان هناك اتصالاً واضحاً في الدراسات الفلكية من القرن الرابع إلى الثامن الهجري\ القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر الميلادي، فقد درسوا مواقع الإجرام السماوية وحركاتها، وتوصلوا إلى العديد من الاكتشافات العلمية، وألفوا الكتب فيها، وكان من أوائل علماء الفلك مسلمة بن احمد المجريطي (ت: 397هـ\1007م)، وفي النصف الأول من القرن الخامس الهجري\ الحادي عشر الميلادي، كان هناك رياضيون فلكيون بارزون هما احمد بن محمد بن السمح (ت:426هـ\1035م)، وأبي القاسم احمد بن عبد الله المشهور بابن الصفار (ت: 426هـ\1035م) كما كان هناك منجم هو ابن الرحال، وفي منتصف ونهاية القرن السادس الهجري\ الثاني عشر الميلادي ظهر فلكيون بشكل متعاقب في اشبيلية هما جابر بن

افلح، والبطروجي حيث برز الأول في كتابه "الإصلاح المجسطي" الذي ترجم إلى اللاتينية والعبرية، أما الثاني فقد انتقد المفاهيم النظرية لبطليموس.

وكان أكثر علماء الفلك أصـــالة ونفوذاً في الأندلس، الطليطلي ابن إســـحاق إبراهيم بن يحي النقاش المعروف بالزرقالي (ت: 493هـــ\1100م) الذي سيطرت أفكاره الفلكية ومسالكه البحثية على تطور الفلك لمدة تزيد على قرون ثلاثة حيث أســهم في تطوير نوع جديد من الفلك الأندلســي يتميز بمزيج من العناصــر الهندية (الســند هند) والعناصــر اليونانية (بطليموس) والعناصــر الإســلامية (البتاني) فأضـاف الأفكار الجديدة (الارتعاش، حركة الأوج الشـمسـي، النموذج الشـمسـي باختلاف مركزي متغير، وتصحيح النموذج القمري البطليموسي) التي كان لها تأثير كبير للغاية في كل من المغرب وأوروبا اللاتينية، وأحيانا حتى المشرق.

وقـد قـام مجموعـة من المترجمين الأوروبيين بترجمـة كتـب علم الفلـك العربيـة إلى اللاتينيـة، ومن أشـــهرهم الانكليزي (ادلار الباثي) و(أفلاطون التيفولي) و(جيرار الكريموني)، وقد ترجمت قوائم الزيج والأعمال الفلكية إلى غير اللاتينية أحيانا كترجمة زيج البتاني (ت: 317هـــ\929م) إلى الاسـبانية بناءاً على رغبة الملك الفونسـو العاشـر ملك قشـتالة (1252-1284م) وسمي هذا الزيج (بالجداول الالفنسية) الذي شاع استعماله في أوروبا لعدة قرون[1].

[1] – جلال مظهر، حضارة الإسلام، ص53، السامرائي، دراسات في تاريخ الفكر العربي، ص42.

أما الجداول الفلكية للخوارزمي فقد ترجمها ادلار الباثي، كما استقى ما جاء به عن الإسطرلاب عن مسلمة المجريطي مستنداً على الترجمة اللاتينية التي بنى عليها كتابه الخاص عن الإسطرلاب والذي سماه "كيف تستخدم الإسطرلاب"، وترجم تنقيح مسلمة لجداول الخوارزمي حول حساب أقطار قرطبة (أي موقعها).

وترجمت كتب أبو العباس احمد بن محمد الفرغاني في الفلك من قبل خوان الاشبيلي وجيرار الكريموني، كما ترجم جيرار الكريموني أعمال ابن معاذ الجياني "انعكاس الضوء في الجو" و"جداول جيان الفلكية"، وترجمت كتب أبو معشر البلخي من العربية إلى اللاتينية من قبل خوان الاشبيلي ومن خلالها نقل إلى الأوروبيين تفسيرا لظاهرة المد والجزر وارتباطها بالقمر[1].

وقد كان لمشروع ترجمات روبرت اليقطوني، وهرمان الكارنثي لمخطوطات عربية عالجت الفلك أرسلت من قبلهما إلى فرنسا الأثر الكبير فهاهو يوحنا من (ساليزبولي) يعتبر العرب أكثر تقدما من اللاتيين في علوم الفلك.

كما أن فكرة المراصد الفلكية أخذتها أوربا عن العرب، فأول من عرف آلات " طبق المناطق" لتعيين مواقع الكواكب في القبة السماوية، والإسطرلابات الكونية، هم الأندلسيون، ويظهر أن إطباق المناطق وجدت لأول مرة في الأندلس في بداية القرن الخمس الهجري – الحادي عشر الميلادي، أما

[1] – عبد الرحمن بدوي، دور العرب في تكوين الفكر الأوربي، ص19، السامرائي، دراسات في تاريخ الفكر العربي، ص403، 404.

الرسائل الأندلسية الأولى حول هذه الآلة فقد كتبها ابن السمح والزرقالي وابن الصلت، ولربما كان أبو الصلت هو المسئول عن انتشار هذه الآلة في المشرق في أثناء إقامته الطويلة في مصر، ذلك أن الرسالة المشـــرقية الوحيدة المنشـــورة حول (طبق المناطق) كتبها في القرن التاســـع الهجري – الخامس عشـــر الميلادي، الفلكي جمشـــيد غياث الدين الكاشـــي، وتوجد فيها تفصـــيلات تذّكر بعمل الزرقالي وابن الصلت، وقد أدخلت هذه الآلة إلى أوربا في وقت أبكر من إدخالها إلى المشرق.

كما قدم العرب خدمة كبيرة في مجال الاســـتكشـــافات الجغرافية، فإذا كان وصـــول العرب إلى القارة الأمريكية قبل كولمبس أمرا غير مقطوع به، فمن المحقق أنهم وصـــلوا في المحيط الأطلســـي إلى أمد بعيد، وانتهوا إلى بعض جزائره، أما الأمر الذي لا شـــــك فيه أن الفكرة التي نهضـــــت بكولومبس مكتشـــــف القارة الأمريكية (1492-1493) إنما هي فكرة عملية مســـــتمدة من المؤلفات العربية وبخاصـــة كتب الفلك والجغرافية، فلولا اقتناع كولومبس بكروية الأرض، لما خطر له أن يصـــل إلى الهند عن طريق الغرب، ولم يكن في ايطاليا واسبانيا يومئذ مؤلفات تشرح هذه الفكرة غير المؤلفات العربية.[1]

وفي مجال علم الطب فقد ســـيطرت المؤلفات العربية طوال القرون الوســـطى لكون الطب العربي كان متفوقاً على الطب الأوربي الذي كان قائماً على الســـحر والشـــعوذة، فقد غدت بعض الأسماء العربية معروفة بصـــيغتها اللاتينية في هذا المجال مثل "ابن ســـينا" صـــاحب كتاب "القانون في الطب"، والرازي، وابن ماســـويه، وموســـى، وإســـحاق بن حنين، وأبو القاســـم الزهراوي وابن الرشـــد وابن زهر

[1] – عبد الفتاح عاشور، فضل العرب على الحضارة الأوربية، ص45، عبد المنعم ماجد، تاريخ الحضارة العربية في العصور الوسطى (القاهرة، 1978)، ص288، السامرائي، دراسات في تاريخ الفكر العربي، ص 403.

الاشبيلي(ت:470هـ/1078م) وولده أبو العلاء (ت: 525هـ\1131م)، وحفيده أبو مروان (ت: 557هـ\1161م)، وقد تمت ترجمة معظم أعمال هؤلاء الأطباء إلى اللاتينية وفي اسبانيا.

وأصبحت كتبهم مشهورة في أوربا لتدريس الطب، فقد ظلت المدارس في أوربا تعتمد على كتب الرازي زمناً طويلاً، كما كان قانون ابن سينا في الطب، موضع اهتمام الغرب ودراستهم منذ القرن الثالث عشر إلى القرن السادس عشر وكان كتاب الحاوي للرازي أحد الكتب التسعة التي تتكون منها مكتبة الكلية الطبية في باريس عام 1395م، وقد بلغت الجراحة ذروتها في تاريخ الحضارة العربية على يد أبي القاسم الزهراوي في كتابه "التصريف لمن عجز عن التأليف" وقد ترجم الفصل الخاص بالجراحة إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر الميلادي.

ويرتبط علم الطب بعلم الصيدلة ذلك العلم الذي طرأ عليه في الأندلس تطوراً كبيراً بفضل النص العربي لكتاب ديوسقوريدس "Matevia Medica" الذي أعده أطباء قرطبة في القرن الرابع الهجري\العاشر الميلادي، ويذكر أن كتاب ديوسقوريدس اختصر باللغة اللاتينية مرتين في طليطلة في القرن السابع الهجري\الثالث عشر الميلادي، في حين ترجم كتابا ابن وافد في العلاج بالحمامات والينابيع الطبية والعقاقير النباتية المفردة إلى لغات نصرانية: الأول غالى اللاتينية بعنوان " De Batneis" والثاني إلى لغة القطلونية بعنوان كتاب العقاقير المفردة " Libre dw les medicines particulars".

ومن بين مشـــاهير علماء الصـــيدلة أبو مروان حفيد الطبيب عبد الملك بن زهر، فقد كانت له شهرة كبيرة لدى النصارى باسم "Abhomeron Averzoar" وكان معاصراً لابن رشد، الذي عده نظيراً له في الطب، وربما متفوقاً عليه في ميدان الصـيدلة، ذلك أن ابن رشـد يحيل قرّأءه في ختام كتاب الذي عرفته النصـــوص اللاتينية بعنوان "Colliget" على كتاب زميله آبي مروان "التيســـير" للاستزادة في مسائل علم الصيدلة. ولقد ترجم كتاب التيسير إلى اللاتينية (يارا فيجيني) في حدود سنة 679هـ\1280م، ويصف الكتاب لأول مرة في التاريخ خراج التامور (دمل شغاف القلب) وينصح في بعض الحالات باسـتعمال التغذية عن طريق المريء أو الشـرج، كما تعرف على أول أوصـاف داء قراد الجرب، المعروف علمياً باسم "sarrptes scabiei".

أما في الكيمياء فقد كانت مؤلفات جابر بن حيان أشـــهر ما تداوله الأوربيون في علم الكيمياء حتى القرن الثامن عشـر الميلادي، ومن خلال هذه المؤلفات عرفت أوروبا عمليات التكليس والتبخير، والتقطير والتبلور وتحضـير الكثير من المواد الكيماوية مثل الشـب وأوكسـيد الزرنيخ وغيرها، كما كانت لمؤلفات الرازي شهرتها مثل "سر الأسرار" الذي نقله (جيرار الكريموني) إلى اللاتينية[1].

وكان لنقل كتب جابر بن حيان والرازي وغيرهم، أمثال احمد بن مســـلمة المجريطي، صـــاحب كتاب (غاية الحكيم) في الكيمياء الذي ترجم إلى اللاتينية في القرن الســـابع الهجري\الثالث عشـــر الميلادي إلى اللغات الأوربية. أن تلقى الأوربيون عن العرب تقسـيم المواد الكيماوية إلى نباتية وحيوانية

[1] – السامرائي، دراسات في تاريخ الفكر العربي، ص 401.

ومعدنية، وما زالت المعدات العربية في مجال الكيمياء، والتي انتقلت إلى الكيمياء الحديثة، تحت أسماءها العربية الأصيلة.

أما في مجال الفلسفة فقد اهتم الغرب الأوربي كثيراً بالفكر الفلسفي، فقد شهد القرن السادس والسابع الهجري\ الثاني والثالث عشر الميلادي، ازدهار الفلسفة في الأندلس من خلال مولد مدرسة مهمة من الفلاسفة تشمل شخصيات كابن باجه، ابن طفيل، وابن رشد وهو أعظم فيلسوف أندلسي ترك أثرا واضحاً في الغرب، وقد أدى العرب المسلمين دور مزدوج، فعن طريقهم عرفت أوربا في القرنين السادس والسابع الهجري\الثاني عشر والثالث عشر، مؤلفات أرسطو، وأجزاء من فلسفة أفلوطين وايرقلس، ومعالم عن فلسفة أفلاطون، إذ قام المترجمون في طليطلة بترجمة كتب هؤلاء الفلاسفة، وهذا ما أدى إلى خضوع الفكر الأوربي لفلسفة أرسطو خضوعاً تاماً[1].

وأثر العرب المسلمين بطريق ثاني على الفكر الفلسفي الأوربي عندما ترجمت مؤلفاتهم إلى اللاتينية، وبعض اللغات الأوربية الحديثة الناشئة وكان في مقدمة المترجمين (جيرار الكريموني) الذي قام بترجمة بعض رسائل الكندي فيلسوف العرب منها (رسالة في العقل) و(رسالة الجواهر الخمسة)، كما ترجم (رسالة في العقل) للفارابي، وترجم (يوحنا الاسباني) منطق ابن سينا، وترجم (هرمانوس المانوس) (شرح ابن رشد) على (كتاب الأخلاق) لأرسطو عام 1240م وترجم شيخ المترجمين (غنصالفة)

[1] – عبد الرحمن بدوي، دور العرب في تكوين الفكر الأوربي، ص30، السامرائي، دراسات في تاريخ الفكر العربي، ص394،

بمساعدة يوحنا الاسباني قسم (الطبيعيات) من كتاب (الشفاء)، وقسم (النفس) و(الإلهيات) من الشفاء لابن سينا، وكتاب (مقاصد الفلاسفة) للغزالي، وكتاب (ينبوع الحياة) لابن جبرول.

وقد تأثر شيخ المترجمين الأوربيين(غنصالفة) بآراء فلاسفة الإسلام، وقد بدت واضحة في كتبه فقد تأثر بابن سينا، وابن جبرول في كتابه (صدور العالم) و(في خلود النفس) و(تقسيم الفلسفة) وفي (التوحيد)[1].

وتأثر مجموعة من الفلاسفة الأوربيين، بالفلاسفة المسلمين في القرنين الثالث عشر، والرابع عشر الميلادي، منهم البرتس الكبير (1207-1280م) الذي تأثر بآراء ابن سينا، وفهم فلسفة أرسطو من خلال مؤلفات الفارابي وابن رشد وابن سينا، والفيلسوف القديس توما الاكويني (1225-1274) الذي تأثر بالفارابي وابن سينا، وبدا هذا التأثر واضحا في (البراهين) التي أوردها ثبات وجود الله بطريقة العقل، كما اخذ من ابن رشد فكرة ضرورة الوحي الإلهي التي وردت في كتابه (فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال) و(الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة)، كما اخذ عن ابن رشد أيضا مذهبه في النقل والعقل، أي الصلة بين العقل والوحي، فكلاهما يعترف بعجز العقل أمام بعض الحقائق الإلهية[2] وبهذا فقد دشنت أعمال ابن رشد تيار الموازنة في جدلية الإيمان والعقل مؤسسه بذلك ضرباً من ضروب الفكر الوسيطي وأول من ادخل فلسفة ابن رشد إلى أوربا (ميخائيل سكوت) ولم يأت منتصف القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي حتى كانت جميع

[1] – عبد الرحمن بدوي، دور العرب في تكوين الفكر الأوربي، ص31.

[2] – السامرائي، دراسات في تاريخ الفكر العربي، ص395، 396،

كتب ابن رشد قد ترجمت إلى اللغة اللاتينية، ولم ينتصف القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي حتى صار ابن رشد صاحب السلطان المطلق في كلية (بادوا) بايطاليا، والمعلم الأكبر دون منازع.

أما أثر التصوف الإسلامي في نشأت التصوف الأوربي فجاء عبر ترجمة مؤلفات الصوفي الغزالي، فقد ترجم كتاب (التهافت) و(النفس الإنسانية) خلال القرن الثاني عشر، وترجم كتاب (المقاصد) من قبل المترجم (جند يسالبة) إلى اللاتينية، وقد أثر الغزالي في فكر العالم الفرنسي المشهور (بسكال) صاحب الحجة المشهورة في إثبات وجود الآخرة والتي تسمى (رهان بسكال) حيث حاول إقناع المنكرين للآخرة الإيمان بوجودها، وهذه الحجة ذكرها الغزالي في معظم كتبه[1].

وكان لمحي الدين بن عربي أثر كبير على عقول النساك والمتصوفة من النصارى، فقد دعا إلى وحدة الأديان، ووحدة حقائق الوجود، وكان من بين تأثر به، الفيلسوف الصوفي الألماني (جوهان اكهارث) الذي نشأ في القرن التالي لعصر ابن عربي (القرن الثالث عشر الميلادي)، وأثر ابن عربي على الشاعر الايطالي (دانتي) الذي استمد مادة غزيرة لكتابه (الكوميديا الإلهية) من التصورات الأخروية الإسلامية، وبخاصة ما ورد منها عند ابن عربي[2].

[1] – الغزالي، إحياء علوم القرآن (القاهرة، 1939): 365/3، 366، السامرائي، دراسات في تاريخ الفكر العربي، ص398.

[2] – عبد الرحمن بدوي، دور العرب في تكوين الفكر الأوربي، ص49 وما بعدها.

وبدأ واضحاً اثر التصوف الإسلامي في نشأة التصوف الأوربي من خلال دراسات العلامة الاسباني (ميجيل اسين بلاثيوس) الذي وضح تأثير الصوفي الأندلسي ابن عباد الرندي (ت: 792 هـ / 1390مـ) على أراء الصوفي الاسباني (يوحنا الصليبي)، وكان الرندي صوفياً على الطريقة الشاذلية، ومشهوراً بشرحه لكتاب (الحكم) لابن عطاء الله الاسكندري المسمى " غيث المواهب العلمية في شرح الحكم العطائية"، وهو كتاب يتضمن جملا قصيرة فيها خلاصة التصوف، وقد تأثر يوحنا الصليبي بنقطة بارزة في هذا الشرح، عي فكرة البسط والقبض، وقد شبه ابو الحسن الشاذلي الذي سار على مسلكه ابن عباد الرندي، البسط والقبض بالليل والنهار، وهذا التشبيه أخذه يوحنا الصليبي عند كلامه عن (الليلة الظلماء للروح) وقد ميز يوحنا بين نوعين من الليلة الظلماء، الليلة الحسية، التي فيها تحاول النفس أن تتطهر من الشهوات ولكنها تسير في طريق مظلم فلا تدري أين تذهب. وبعد مجاهدة النفس وتأملاتها يلقى الله بصيصاً من النور في قلب المريد فيبدأ يدخل في الليلة الروحية فيطهرها من الجهالات، ويلهم الله النفس التقوى، ويلهمها محبته ويصفيها من ادران الحواس وعلى الرغم من أن ابن عباد سبق يوحنا بمائتي سنة، أولا، وعدم وجود دليل مادي مكتوب ثانيا، لكن يبدوا أن تأثر يوحنا بابن عباد، جاء نتيجة الانتشار الواسع للطريقة الشاذلية في مصر والمغرب والأندلس وبخاصة في الأندلس في القرن الرابع والخامس عشر الميلادي، ولابد أنها بقيت عميقة التأثر والانتشار

بين المسلمين الذين غلبوا على أمرهم، وبقوا في اسبانيا بعد إخراج العرب منها عام 897 هـ / 1492 م، وعن هؤلاء تلقى يوحنا علمه بالطريقة الشاذلية[1].

وكان للأدب الأندلسي، لاسيما الشعر، أثر كبير في نشأت الشعر الأوربي الحديث في اسبانيا وجنوب فرنسا ويأتي تأثير الزجل والموشح بالدرجة الأولى، وأول من ابتكر الموشح هو مقدم بن معافي القبري (ت: 299 هـ / 912م) ثم تلاه شعراء آخرون أمثال الأعمى التطيلي وأبو بكر بن اللبانة، ولسان الدين بن الخطيب وغيرهم، حيث وجدوا هؤلاء الشعراء أنفسهم مضطرين إلى نظم هذه الموشحات لأنهم كانوا يعيشون في مجتمع يميل إلى كا ما هو شعبي وأدى ذلك إلى ظهور الزجل الذي اشتهر به محمد بن عبد الله بن قزمان(ت:554هـ/1159م)[2].

وهذان النوعان من الشعر هما اللذان أثرا في نشأة الشعر الأوربي، كما يروي المستشرق الاسباني (خليان ريبيريا) الذي درس موسيقى الأغاني الاسبانية ودواوين الشعراء (الترو بادور) وهم الشعراء الجوالة في العصور الوسطى بأوربا وكلمة تريادور مأخودة من الكلمة العربية (دور طرب) و(المنيسجر) وهم شعراء الغرام، كما اثبت انتقال بحور الشعر الأندلسي فضلا عن الموسيقى العربية وآدابها وتقاليدها وآلاتها إلى أوربا[3].

[1] – عبد الرحمن بدوي، دور العرب في تكوين الفكر الأوربي، ص25-27، السامرائي، دراسات في تاريخ الفكر العربي، ص397، 398.

[2] – المرجع نفسه، ص 404-405.

[3] – عبد الرحمن بدوي، دور العرب في تكوين الفكر الأوربي، ص 14، عبد الرحمن الحجي، الحضارة الإسلامية في الأندلس، ص 40.

وأثرت القصص العربية على نشأة الأدب القصصي في أوربا فقد قام(بدرو الفونسو)بترجمة ثلاثين قصة من العربية إلى اللاتينية تحت عنوان(تعليم العلماء) وقد أثرت كليلة ودمنة في الأدب الأوربي بعد أن ترجمت في عصر(الفونسو الحكيم) حوالي عام 1250م إلى الاسبانية كما ترجمت بعض القصص التي تسربت من ألف ليلة وليلة إلى الأندلس ومنها حكاية(الجارية تودد) التي ترجمت إلى الاسبانية في قرن الثالث عشر ، وأثرت بعد ذلك في نتاج كبار أدباء المسرح الاسباني، وبذلك احتل كتاب ألف ليلة وليلة مكانة مهمة في تاريخ الأدب الغربي[1].ولم تظهر الترجمة الكاملة لهذا الكتاب إلا في أوائل القرن الثامن عشر حيث ظهرت أولا باللغة الفرنسية ثم بسائر اللغات الأوربية.[2]

وحينما نقلت أوربا العلوم الإسلامية، ودرستها في جامعاتها التي لم تظهر إلى مؤخرا كجامعات باريس وموتبلييه لم تظهر قبل القرن الحادي عشر الميلادي، وجامعات فينا وبيزا ظهرت في القرن الرابع العشر الميلادي ، فانه بلا شك قد تأثرت هذه الجامعات ببعض تقاليد الجامعات العربية ، وبخاصة الأندلسية، فقد قلدتها في لبس الادرية الخاصة بالأساتذة، وقلدتها في منح الإجازات الجامعية (إجازة تدريس كما أن نظام المعيدين، ووجود أساتذة مشهورين يدرس الطلبة على أيديهم هو نظام إسلامي، ويقول البعض أن لفظة بكالوريوس إلا تحريفا للعبارة العربية، حق الرواية، أي حق التعليم بتخويل من الغير)[3].

[1] – عبد الرحمن بدوي، دور العرب في تكوين الفكر الأوربي، ص16، عبد الرحمن الحجي، الحضارة الإسلامية في الأندلس، ص 40.

[2] – السامرائي، دراسات في تاريخ الفكر العربي، ص 408.

[3] – المرجع نفسه، ص 404، عبد الرحمن الحجي، الحضارة الإسلامية في الأندلس، ص48.

وننهي كلامنا عن بحثنا المتواضع، باعتراف واحد من مجموعة من المستشرقين الذين يقرون بدور العرب المســـلمين واثر حضـــارتهم في أغناء وتطور الفكر الأوربي فيقر مونتيكري واط بالقول: (لولا العرب وفكرهم وكتاباتهم ما كانت العلوم والفلسـفة الأوربية قد تطورت إلى ما وصـلت إليه، فلم يكن العرب مجرد موصـلين للفكر الإغريقي، بل كانوا ناقلين عباقرة لها ، حفظوا المعارف التي تعلموها حية، ووســعوا في ميادينها، وكانت هذه العلوم قد وصـــلت قمتها عندما بدا اهتمام الأوربيين جديا بحدود 1100م بتعليم فلســـفة وعلوم أعدائهم العرب، كما كان على الأوربيين أن يتعلموا جميع ما يتمكنوا عليه من العرب قبل أن يحققوا تقدما اكبر بأنفسهم.

الفصل الرابع: دورهم الاقتصادي والاجتماعي

المبحث الأول: دورهم الاقتصادي والاجتماعي

- المطلب الأول: دورهم الاقتصادي
- المطلب الثاني: دورهم الاجتماعي

☙ المبحث الأول: دورهم الاقتصادي والاجتماعي

استطاع المرابطون لأول مرة في تاريخ المغرب السياسي توحيد المناطق الساحلية المتأثرة بالحضارة الأندلسية مع المناطق الداخلية بداخل البلاد المتأثرة بالحضارة البيزنطية، ونشروا المعطيات الحضارية في المغرب كله بسهوله وجباله، ومن ثم ضمت المؤثرات الحضرية والقروية لتنصهر في وحدة بين شمال البلاد وجنوبها وبين الأندلس وإفريقيا الشمالية والوسطي، وأصل الملثمين –كما سبقت الإشارة– من قبائل الصحراء التي لم تكن تعرف طلاوة الحضر وكانت تهتم فقط بتربية الأنعام والمواشي والإبل، إلا أنهم بعد الاحتكاك بالحضارة الأندلسية اقتبسوا منها، وعملوا على التكامل بين الاقتصاد الأندلسي والاقتصاد المغربي ومد الجسور بين العدوتين ما وسعهم ذلك؛ إذ تذكر المصادر أن المرابطين عند فتح مدينة «فاس» سنة (462هـ) عملوا على تطوير اقتصادها وبناء الحمامات والفنادق والأرحاء على الأودية رغبة في رواج اقتصادها وتحريك عجلته ذات اليمين وذات الشمال.

كما أن الوصف الدقيق "للشريف محمد الإدريسي الحسني السبتي" (564هـ/1160م) في كتابه الشهير ''نزهة المشتاق في اختراق الأفاق ''[1] لمدينة «مكناس» كما شاهدها في عهد المرابطين يظهر مدى اعتناء المرابطين بترويج الاقتصاد حيث ذكر أنها كانت تتكون من مجموعة أحياء متقاربة، وتمتاز بخصوبتها وعيونها الدافقة، وكانت تنتج القمح والعنب والزيتون والفواكه، وغراساتها منتظمة يتصل بعضها ببعض.

لقد اهتم المرابطون الأشاوس بجميع نواحي الاقتصاد وحاولوا جهد المستطاع اكتشاف وتطوير أساليب اقتصادية جديدة رغبة في ازدهار البلاد ومواكبتها للتطورات التي كانت ترد عليها خصوصا بعد ضم المغرب والأندلس سياسيا ومد الجسور بينهما، ومن النماذج الاقتصادية التي أولوها عنايتهم الفلاحة، الصناعة، والملاحة... والتي سنلامس بعض الجوانب منها تذكيرا لعظمة هذه الدولة المجاهدة التي

[1] – كتاب في الجغرافية العامة يذكر فيه مؤلفه البناء والبحار والجبال، وأجناس النباتات والصناعات والتجارات، مع ذكر أحوال أهل البلاد ومذاهبهم وزيهم ولغاتهم.

استطاعت في ظرف وجيز أن تعمل على تنمية وازدهار اقتصاد المغرب والأندلس على السواء وتدخل التاريخ من أبوابه الواسعة.

➢ المطلب الأول: دورهم الاقتصادي

1- الفلاحة عند المرابطين:

اعتنى المرابطون بالفلاحة والزراعة في دولتهم الفتية وسعوا إلى تطوير أساليبها وتنميتها لكي تستطيع أن تفي بحاجيات ومتطلبات البلاد، وتذكر المصادر والمراجع التاريخية التي اهتمت بالحقبة المرابطية أن المرابطين كانوا من أغنى القبائل الصحراوية، وأن مدينة «أغمات» التاريخية كانت "... من المدن الخصبة التي تصدر منتجاتها الوافرة إلى السودان من نحاس وأكسية وصوف وزجاج وأحجار وتوابل، ومصنوعات حديدية وغيرها... وفي ناحية سوس كانت تزدهر زراعة قصب السكر"[1]، كما كانت هناك عدة أنواع من الفلاحة مزدهرة ومتوفرة في باقي أنحاء المغرب تذكرها المصادر التي أرخت لهذه الحقبة التاريخية الذهبية.

وبعد وصول المرابطين إلى الأندلس ساهموا في نهضة الفلاحة وغرس الأشجار وتوسيع مجال الزراعة مما يوحي أن التواصل والصلات التي كانت بين المغرب والأندلس وحدت بين نظاميهما الاقتصادي من جميع الجهات، ويمكن الوقوف على ذلك بالتفصيل في كتب «الرحلات» وكتب «الوثائق» وكتب «النوازل» ككتاب "الإعلام بنوازل الأحكام" للقاضي عيسى ابن سهل(توفي486هـ).

التجارة عند المرابطين:

كان لحالة الاستقرار السياسي والاقتصادي الذي شهدته دولة المرابطين في عصر يوسف بن تاشفين وعصر ولده علي بن يوسف الأثر الكبير في ظهور أهمية التجارة وازدهارها، ولاشك أن اعتناء التجار بهذا الميدان يعود إلى إلغاء الدولة المرابطية للضرائب الفادحة والمكوس على التجارة والمتاجر، مما ساعد على استفحال ظاهرة التجارة وامتهانها من لدن العديد من شرائح المجتمع المغربي الأندلسي الذي

[1] – إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، 219/1.ط:1دار الرشاد الحديثة، البيضاء، 1984م.

كان يتكون من مجتمع العامة من التجار والصناع والحرفيين والمزارعين، ومما ساهم أيضا في ازدهار التجارة بالغرب الإسلامي على عهد المرابطين ذلك التوحيد بين المغرب والأندلس والسودان حيث أصبح "في الإمكان أن تنتقل القوافل من أقصى السودان إلى أقصى الأندلس ثم إلى العالم العربي شرقا والعالم الأوروبي شمالا، ونشطت مراكز جديدة كسجلماسة وأغمات.."[1]، التي أصبحت مراكزا تجارية يحسب لها ألف حساب ويعطى لصادرتها أهمية كبرى.

إن امتداد رقعة الدولة المرابطية في السودان والمغرب والأندلس مكن التجارة من الازدهار والحضو بنصيب وافر من الاهتمام في هذا العصر، ومن تم أدى إلى فتح منافذ كثيرة وطرقا مختلفة لتسويق المنتجات الزراعية والصناعية، فنشطت بذلك حركة الصادرات والواردات ونمت التجارة الداخلية والخارجية على السواء، كما أن الاستقرار السياسي الذي عرفته الدولة المرابطية ساهم في تأمين التجارة الداخلية بين حواضر الدولة في المغرب والأندلس، فشجع ذلك التجار على ولوج هذا الميدان والعمل على تنميته وازدهاره، وزاد في هذا الازدهار سيطرة المسلمين على حوض البحر الأبيض المتوسط فكان لهذا التحكم في الحوض دورا في الازدهار الاقتصادي والتجاري بين الشرق والغرب، إذ كانت سفن المرابطين دائبة الحركة إلى «سوريا» لجلب التوابل والمنتجات الفاخرة من بلاد الشرق إلى شمال إفريقيا؛ ومما يؤكد التبادل التجاري بين دول حوض البحر الأبيض المتوسط والشرق العثور على قبر بمدينة «ألميرية» في الأندلس يحمل اسم تاجر إسكندري الأصل اسمه ابن خليف الإسكندري توفي بهذه المدينة سنة (519هـ)، ينتمي إلى أسرة سكندرية مرموقة في العصر الفاطمي اشتغل بعض أفرادها بالتجارة، مما يدل على أن التجارة كانت قائمة بين الأندلس في العصر المرابطي وبين مصر في العصر الفاطمي، كما عثر على قبر شاهد آخر بنفس المدينة يحمل اسم أبو عمر عثمان بن محمد بن بقي الشامي الذي توفي بالمرية سنة (525هـ)[2].

[1] – حسن السائح، الحضارة المغربية عبر التاريخ، 173/1.دار الثقافة، البيضاء، ط:1، 1975م. وللمزيد انظر: عز الدين موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، طبعة دار الشروق، القاهرة:1983م، ص: 27

[2] – السيد عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة ألميرية الإسلامية قاعدة أسطول الأندلس، بيروت:1929م، ص: 170.

في ذات السياق سجل التاريخ للمرابطين حرصهم الشديد على نمو أسطولهم البحري لما لمسوه من أهمية هذا الأسطول سواء على الصعيد السياسي أو الاقتصادي، فاهتموا به اهتماما كبيرا وبفضله احتلوا مركزا مهما في حوض البحر الأبيض المتوسط مما ساعد على ازدهار التجارة الخارجية المرابطية، وتأمين طرق التجارة البحرية من الأخطار الكثيرة التي كانت تهددها خصوصا خطر القراصنة الذي كان يحدق بها من كل ناحية، ولقد كان لهم في عهد "يوسف ابن تاشفين" أسطولا صغيرا يتألف من السفن التي تنقل الجند من المغرب إلى الأندلس، وكان عدد هذه السفن كبيرا بالنسبة إلى السفن البحرية، وقد ارتقى هذا الأسطول في عهد علي بن يوسف وأظهرت وحداته نشاطا ملحوظا في البحر الأبيض المتوسط حيث يذكر الشريف الإدريسي أن "أحمد بن عمر كان واليا لأمير المسلمين "علي بن يوسف بن تاشفين" على جملة من أسطوله"[1] ؛ ومن ثم نلمس أن الأسطول المرابطي في عهد "علي بن يوسف" كان ضخما، وأنه كان ينقسم إلى وحدات، ولقد انتصر الأسطول المغربي على أسطول الفرنجة في فتح بلنسية وجزر البليار[2]، كما اشتهر من أمراء البحر في عهد "علي بن يوسف"، "علي بن ميمون" الذي كانت له جولات بحرية رائعة على سواحل الأندلس وإيطاليا وفرنسا؛ وبفضل حمايتهم للطرق التجارية وتوسيعهم لها استطاع المرابطون بحنكتهم وحسن تدبيرهم إقامة نشاطا تجاريا بين دولتهم الفتية وبين البلدان الأوروبية الغربية "... وقد استمرت هذه الحركة مزدهرة رغم غارات الإيطاليين على سواحل المغرب الإسلامي، وظلت العملة التي كانت تسلك آنذاك في «كَطلُونِية» و«مُونبِيليه» باسم الدينار المنقوش دليلا على قيام تجارة نشيطة بين بلدان الغرب الأوروبي وبين مسلمي الأندلس والمغرب، وقد استحوذ تجار «جِنْوَة» و«بِيزَة» على قدر كبير من تلك التجارة خلال العصر المرابطي"[3].

إن دولة المرابطين رغم قصر عمرها استطاعت ببعد نظر خلفائها ودربتهم الاستفادة من قربها من البلدان الأوروبية ومد الجسور معها عن طريق المبادلات التجارية التي سعت إليها بكل قواها بمختلف الوسائل والطرق رغم قرب عهدها بالحياة الأندلسية، وتحدت الصعاب والعقبات التي واجهتها

[1] – الشريف الإدريسي، المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، طبعة: ليدن، ص: 54.

[2] – القلقشندي، صبح الأعشى 257/5.

[3] – حمدي المرعي، تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين –دولة علي بن يوسف المرابطي–، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1986م، ص: 352-353.

كالهجمات الإيطالية المتكررة على سواحل المغرب، والخطر الدائم الذي كان يشكله القراصنة في حوض البحر الأبيض المتوسط، فسعت إلى تطوير أسطولها البحري لما لمسته من أهميته إذ يعتبر هو الأداة الفعالة لولوج الميدان البحري؛ وأنشأت المدارس المختصة من أجل تكوين البحارة المتميزين الذين يحملون لواء الدفاع عن أسطولها البحري، ومن ثم استطاعت بفضل هذه الجهود الذؤوبة تنمية التجارة الداخلية والخارجية في ظرف وجيز وتحريك اقتصادها وازدهاره.

الصناعة عند المرابطين:

لم تكن الصناعة أقل شأنا من التجارة عند المرابطين فقد ازدهرت ازدهارا كبيرا منقطع النظير حيث توفرت المواد الخامة التي تستعمل عادة في الصناعة، وتدفقت بكثرة على أسواق الأندلس من السودان، كما ساهم النشاط التجاري الذي كان قائما بين موانئ المغرب والأندلس والسودان بدوره في رواج الصناعة التي أصبح من السهل تسويقها وتصديرها إلى أسواق الاستهلاك المختلفة، فاستطاع الصناع بفضل ذلك مضاعفة الإنتاج والترويج لصناعات متنوعة، كما فتحت الدولة المرابطية أبواب المغرب أمام صناع الأندلس الذين توافدوا على المغرب حاملين معهم تجربتهم ومهارتهم المتميزة؛ ومن تم كان الصناع الحرفيين يشكلون جانبا كبيرا في المجتمع المغربي الأندلسي فأصبحوا موضع احترام الخليفة وأمراء الدولة حيث كانت لهم مشاركات عديدة في ازدهار الحياة الاجتماعية سواء في المغرب أو الأندلس عن طريق إبداعاتهم الرائعة.

وبفضل ازدهار وتطور الصناعة في عهد المرابطين ظهرت بالمغرب والأندلس مراكز صناعية ضخمة ارتفع نجمها وذاع صيتها، وتميزت بنوع معين من الصناعات كمدينة فاس ومراكش وأغمات بالمغرب، وكانت هذه الأخيرة حسب ما تذكره المصادر تصنع مصنوعات حديدية من نحاس وغيره وتصدرها إلى السودان، كما أنها كانت تصنع منتوجات زجاجية وتصدرها من بين الأشياء التي كانت تصدر خارج المغرب، أما مدينتي فاس ومراكش فقد كانت بكل منهما أسواقا مشهورة تذكرها المصادر والمراجع المختلفة تباع فيها منتوجات محلية من جلد وأحذية وألبسة صوف إلى غيره من المنتوجات التي كانت رائجة في ذلك العهد والتي اشتهر المغرب بتصنيعها خلال الحقبة المرابطية؛ ولقد وصف "الحسن الوزان"

أسواق مدينة فاس المختلفة وما كان يروج فيها من منتوجات صناعية محلية بأيد مغربية، كما وصف العباس بن إبراهيم مدينة مراكش وأسواقها في كتابه "الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام" نقلا عن "الشريف الإدريسي" الذي ذكر أن مراكش في عهد المرابطين كانت لها أسواقا مختلفة وسلعها نافقة.

ومن أهم المدن الصناعية الأندلسية في عهد الدولة المرابطية مدينة «إشبيلية» و«ألميرية» و''قرطبة'' وهم من أهم المراكز الصناعية بالأندلس التي ساهمت في ازدهار الصناعة خلال هذا العصر حيث كانت تتوفر على مواد خام تصلح لمختلف الصناعات التي استعملها المرابطون في منتوجاتهم الصناعية والتي كانت تغزو الأسواق الداخلية والخارجية، ومن الصناعة التي انتشرت عند المرابطين واهتموا بها اهتماما فائقا صناعة السفن والأسلحة الحربية حيث كانت هذه الصناعة من الصناعات التي حرصت عليها الدولة المرابطية وسعت إلى تطويرها في كل حين نظرا لأهميتها بالنسبة لدولتهم التي كان شعارها رفع راية الإسلام عاليا والذود عن حمى الوطن كلما دعت الضرورة إلى ذلك؛ وللإشارة فرغم بداوة المرابطين وقلة خبرتهم بالبحرية بحكم انبثاق دولتهم من الصحراء، فقد استطاعوا أن يدركوا بفطنتهم أهمية القوة البحرية منذ أن شرعوا في فتوحاتهم بالمغرب وتمكنوا من فرض سيطرتهم وسلطانهم على السواحل.

يرجع الفضل في إنشاء البحرية المرابطية إلى دربة وحنكة القائد الباسل يوسف ابن تاشفين الذي وجه عنايته الخاصة نحو إنشاء أسطول بحري من أجل فتح الأندلس ونقل جيوشه وعتادهم نحوها وتوفير الحماية لهم، فاستعان بخبرة أهل الأندلس، كما استعان بالمواد الخام التي تتوفر بكثرة في الأندلس والتي تصلح لصناعة السفن كمعدن الحديد والأخشاب، كما استعان أيضا بدور صناعة السفن المنتشرة على طول السواحل الأندلسية، وخاصة دور الصناعة في «طرطوشة» و«دانية» و«شلب» التي كانت محاطة بغابات تصلح أخشابها لصناعة السفن''؛ ولقد كان بمدينة «ألميرية» وحدها قسم كبير من الأسطول المرابطي حيث كانت تعتبر من أكبر قواعد هذا الأسطول الذي كان دائما على أهبة الاستعداد لتلبية أوامر الخليفة يوسف بن تاشفين من أجل الدفاع عن حوزة الوطن.

يستشف مما سبق ذكره أن الدولة المرابطية رغم قصر عمرها كان لها اهتماما بالصناعة والتجارة بالمغرب والأندلس حيث كثفت جهودها من أجل تطوير هذه الميادين وعملت على تشجيع التجار والصناع والحرفيين في مختلف الحرف، وكان لفتح الأندلس أثر واسع على الصناعة والتجارة بالغرب الإسلامي في عهد المرابطين الذين استفادوا من موقعها الإستراتيجي الذي مكنهم من مد الجسور مع البلدان الأوروبية الأخرى، بالإضافة إلى دربة خلفائهم وبسالتهم التي خولت لهم خدمة دولتهم الفتية وترسيخ قدميها في كل من إفريقيا وأوروبا على السواء وفرض وجودها رغم كثرة الإحن والمحن..

وتجدر الملاحظة أن القوة الاقتصادية للدولة المرابطية الفتية تظهر بالملموس في قوة دينارها المرابطي الذي تتكلم عنه كتب الفتاوى والنوازل المختلفة بالتفصيل والمراجع الأجنبية التي أرخت لتلك الحقبة التاريخية، وباختصار شديد يمكن الإشارة إلى العوامل الكامنة وراء قوة العملة المرابطية التي ظلت متربعة على عرش العملات المسيحية المتداولة بمدة طويلة بعد سقوط نجم المرابطين، وهي عوامل اقتصادية وسياسية أهمها أن الدينار المرابطي كان يضرب من الذهب الخالص الذي كانت له سمعة عالمية وهو ذهب دولة غانة [1] الذي تحكم المرابطون في مناجمه وطرق تجارته منذ سنة (445هـ/1053م)، وقد أدى تراكم الذهب بأيدي المرابطين إلى سك دينار وصلت درجة نقائه إلى 96 ب المائة، مما جعله مرجعا معتمدا في الأوساط التجارية الدولية آنذاك، جعلت الدول المسيحية في «قشتالة» و''أرغون'' تحرص على الحصول عليه حتى أصبح اسمه يذكر في الوثائق والحوليات الإسبانية الوسيطية، التي ظهرت فيها كلمة ''Marabotin'' منذ سنة (477هـ/1084م) وفق ما تذكره المصادر الأجنبية المعتمدة.

هذه باقتضاب شديد أيّها القراء الكرام بعض الإشارات والنماذج من الحياة الاقتصادية التي اهتمت بها الدولة المرابطية المغربية التي تعتبر غرة ناصعة في جبين التاريخ المغربي، وتاريخ منطقة الغرب الإسلامي الحافل بالأحداث التي يمكن اقتباس العبر منها وتفعيلها على أرض الواقع المعيش...

[1] –أمين توفيق الطيبي، دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس. ليبيا–تونس، الدار العربية للكتاب، 1984م، ص: 321

➢ المطلب الثاني: دورهم الاجتماعي

أ- الزواج:

إن الزواج هو اللبنة الأولى لتكوين الأسرة ومظهر من المظاهر الاجتماعية التي شكلت النسيج الاجتماعي للأندلس، فكيف كان يتم الزواج الأندلسي؟ وإلى أي مدى ساهم في استقرار الأسرة الأندلسية؟

لقد كانت عملية اختيار الفتى لعروسه بسيطة وسهلة، فكان يتم بواسطة سواء من الأهل أو الأصدقاء، أو قد يكون الفتى قد شاهد الفتاة في مكان عام خاصة وأن النساء كن يتسوقن بصحبة بناتهن، وأحيانا كانت الأم لها اليد الطولى في اختيار العروسة، وربما هذا ما كان يقابل بعدم الرضا من طرف الشباب بعدم اقتناعه بالعروسة، وهذا ما نجده منتشرا بكثرة في البادية الأندلسية.

وكان يقوم بمهمة الخطبة "الخاطبة' التي تمهد الاتفاق بين العائلتين وتوكل المهمة عادة إلى النساء المسنات على سبيل حب الخير والوصل بين الفتى والفتاة[1]، وبعد انتهاء فترة الخطوبة يتم عقد القران بكتابة وثيقة النكاح وكانت تتم في المسجد جلبا للبركة والسعد، وكان يبدأ بالبسملة والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم يكتب اسم الزوج والزوجة ووالديهما، وأن تكون صحيحة الجسم وخالية من موانع النكاح.[2]

[1] – كمال السيد أبو مصطفى: مالقة الإسلامية في عصر دويلات الطوائف القرن 05 هـ/ 11م، دراسة في مظاهر العمران والحياة الاجتماعية، مؤسسة شباب الجامعة، د. ط، الإسكندرية، 1993، ص 60.

[2] – المقري: المصدر السابق، ج 05، ص ص 59 – 60، كمال السيد أبو مصطفى: مالقة الإسلامية في عصر دويلات الطوائف، ص 60.

وكان والد العروس في بعض الأحيان يطلب من زوج ابنته قبل الزفاف أن يضمن جهاز العروس بضمانات يكتبها كتابة، وهناك من الآباء من يميل إلى المباهاة والعظمة والفخر بجهاز ابنته حتى بأشياء منزله، وربما هذا ما أحدث مشاكل بين العائلتين عند رد بعض أشياء الجهاز إلى منزل الأب[1].

وكان للزواج موعد تختاره العائلتان، ويتكفل الزوج بكل النفقات كإعداد الولائم وإحضار المغاني والراقصات وضاربي الدفوف، وتدوم مدة الاحتفال بالزواج أسبوعا كاملا في منزل العروس، حيث تتلقى فيه تهاني النساء والصديقات والأقرباء.

ولكن ما نلاحظه أن اللهو على أنواعه في الأعراس ممنوع، ما عدا الدف العربي وهو أشبه بالغربال[2]، والزواج عموما في الأندلس وعلى غرار العالم الإسلامي لا يتم إلا بولي وصداق وشهود، وأقل الصداق عند مالك ربع دينار وإذا وجد الزوج بالزوجة عيبا أن يمسك عن وطئها والتلذذ بها، وكان كثيرا ما يطلقها، ومعنى ذلك أن يقوم بإرجاع المهر إلى الولي العاقد لنكاحها[3].

كما ذكر ابن عبد الرؤوف أيضا ضرورة عدل الزوج في حالة تعدد زوجاته بقوله:" أنه على الرجل الذي تزوج بأكثر من واحدة أن يعدل بينهن في الملبس والطعام والمبيت ولا يفضل واحدة منهن على صاحبتها، إلا ما لا يستطيع العدل فيه مثل الجماع والمحبة"[4].

إن المتتبع لحركية هذه الظاهرة يجدها قد عرفت عزوفا خاصة أثناء الفتنة البربرية وبعدها، حيث قل الزواج بل صار نادرا، بسبب تأثيراتها على الأوضاع الاجتماعية من قتل للشباب والشيوخ، وهذا ما انعكس سلبا على النساء خاصة في المناطق التي تضررت من الفتنة، وهذا ما أكده ابن حزم بأن المرأة

[1] – كمال السيد أبو مصطفى، المرجع نفسه، ص 62.

[2] – ابن عبد الرؤوف القرطبي: آداب الحسبة والمحتسب، تحقيق فاطمة الإدريسي: دار ابن حزم، ط 01، بيروت، 2005، ص 58.

[3] – ابن عبد الرؤوف: المصدر نفسه، ص 52 – 53.

[4] – نفسه: ص 57 – 58.

لم تعد تتزين وعلى وجهها آثار البؤس واليأس، والشيء نفسه ذهب إليه المقري في تصويره لفتاة تريد أن تتزوج ولكنها عجزت عن البوح لأبيها[1].

كما كانت حفلات أعراس الطبقات العليا متنوعة بالمواد الدسمة، وتبذل فيها الكثير، فإن حفلات الطبقات الدنيا كانت متواضعة خفيفة الغذاء قليلة المأكل.

ب- الطلاق:

لقد كان الطلاق أحد الظواهر الاجتماعية الموجودة في المجتمع، فابن عبد الرؤوف يرى بأن يؤدب من يحلف بالطلاق بطلاق الثلاث، كما يؤمر الرجل ألا يتخذ النكاح والطلاق والعتاق هزلا ولا لعبا، كما يؤمر الموثقون أن يعقدوا مراجعة رجل طلق امرأته خلقا أو تمليكا ويؤدب، حيث يقول ابن عبد الرؤوف:" ويؤدب من شكت به امرأته وعليها أثر الضرب المبرح على حسب ما يظهر عليها من ذلك"[2].

فقد كانت معظم عقود الزواج مشروطة بشروط خاصة على الزوج، إذا أخل بإحداها كان الطلاق نتيجة حتمية؟، وحق تمارسه المرأة في أي وقت شاءت وتأثرت ظاهرة الطلاق خلال القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلاد بالسياسة والاقتصاد والمجتمع، فأحوال قرطبة السيئة من جراء الفتنة ساهمت في إحداث ونمو ظاهرة الطلاق بشكل كبير.

ولقد حفلت كتب الفتاوى بمعالجة هذه الظاهرة الاجتماعية، ولنأخذ فتاوي ابن رشد مثالا لذلك، حيث نستنتج من القضايا التي عرضت عليه أيام عصر الطوائف الانعكاسات السلبية للظاهرة على الأسرة والمجتمع خاصة في حضانة الأطفال، التي خلقت مشاكل عديدة، مما أثر سلبا على تربية الأطفال والنمو النفسي الذي يصبح متذبذبا بسبب الحرمان الأبوي والأمومة.

[1] – ابن حزم: طوق الحمامة، ص 100، المقري: المصدر السابق، ج 03، ص 350.

[2] – ابن عبد الرؤوف: المصدر نفسه، ص 59.

وكان الطلاق يحدث لأتفه الأسباب، حتى أن المرأة التي لا تقوم بتنظيف أنها من القذارة تكون عرضة للطلاق، وهذا ما يبين لنا بأن هناك من النساء اللواتي لا يعتنين بمظهرهن، مما يحدث نفورا من قبل الزوج والتفكير في إعادة الزواج، كما أن الزوجة التي يكثر روادها وزوارها خاصة من أقاربها كانت سببا في بروز الخلافات الزوجية والتي أدت في بعض الحالات إلى الطلاق.

ثم أن للأهل دور كبير في فض الخلافات الزوجية الطارئة قبل عرضها على قاضي الجماعة وحدوث الطلاق.

ج- الاحتفالات والأعياد:

1- الاحتفالات والأعياد الإسلامية:

احتفل المسلمون في الأندلس بالعديد من الأعياد والمناسبات الدينية، ولعل عيد الفطر يمثل مظهرا حقيقيا لذلك، حيث يبدأ في غرة شوال عقب نهاية شهر رمضان، وكانت رؤية هلال شوال تتم تحت إشراف القاضي وكبار الفقهاء للاستطلاع وإعلان انتهاء شهر الصوم[1].

فمن المناسبات الدينية التي احتفل بها الأندلسيون، حلول شهر رمضان المعظم، حيث كانوا يحتفلون بحلوله بأن يخرج القضاة والفقهاء وأئمة المساجد لاستطلاع هلال رمضان، كما يزخر هذا الشهر بمجالس الذكر والعلم، والإكثار من قراءة القرآن في المساجد، ولعل الشيء الملفت للنظر هو العناية بتنظيف المساجد وإنارتها بالقناديل والثريات وإحراق كميات كبيرة من البخور، كما اعتبر السابع والعشرون من رمضان ليلة معظمة لدى الأندلسيين، ففيها يختم القرآن، وتسمى عندهم "الختمة"، دون

[1] – كمال السيد أبو مصطفى: مالقة الإسلامية في عصر دويلات الطوائف، ص 79.

أن ننسى مشاركة النساء في حفل الختم ويشتري الناس في هذه الليلة الحلوى وهو ما اعتبره الطرطوشي بدعة[1].

وقد كان الناس في الأندلس يهنئ بعضهم بعضا بحلول العيد وينشد الشعراء أشعارا بين يدي حكامهم مهنئينهم بهذا العيد، ويبدأ التحضير لعيد الفطر ليلة السابع والعشرون من رمضان، حيث يجتمع الناس على ابتياع الحلوى، وفغي يوم العيد يستيقظ الناس في الصباح الباكر فيتجهون إلى المصلى لإقامة صلاة العيد، ويذكر الطرطوشي أنهم يصطحبون معهم النساء والأطفال وينصبون الخيام على مقربة من المصلى لمشاهدة مظاهر الفرحة والابتهاج بالعيد.

وبعد الانتهاء من الصلاة يخرج الناس إلى الشوارع والميادين والمتنزهات والأماكن العامة مرتدين أفخر الملابس، وغالبا ما تكون جديدة ابتهاجا بالعيد كما تقوم الأم بتحضير موائد تضم أصنافا متعددة من الأطباق.

أما عيد الأضحى الذي يأتي في العاشر من ذي الحجة، فقد كان فرصة للاحتفال والتفاخر بالأطعمة والزينة حسب التفاوت في مستوى المعيشة، فقد كانت كل أسرة سواء فقيرة أم غنية تحرص على تقديم الأضحية، والتي تكون خروفا في العادة، وتشتري قبل العيد بيومين وهي عادة عندهم، حيث نجد الناس يتنافسون في شراء الأضحيات من أجل التباهي وليس أتباعا للسنة أو طلبا للأجر، وجرت السنة أن يتم ذبح الناس لأضاحيهم بعد ذبح أضحية إمام المسجد، فقد أشرات فتاوى ابن رشد إلى وجوب إخراج أضحيته إلى المصلى حتى يشاهدها الناس، ولا يذبحون قبل انصرافه إلى منزله.

وأحيانا يتخذون من الأضحية مدارا للمداعبات التي تدل على تأصل روح الفكاهة في المجتمع الأندلسي، ويدو أن ظاهرة استجداء خرفان العيد من الأمراء والرؤساء كانت معروفة لدى كثير من

[1] – السيد عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة الإسلامية في الأندلس، دراسة تاريخية عمرانية أثرية، دار النهضة العربية، د.ط، بيروت، ج 02، ص 177، المقري: المصدر السابق، ج 02، ص 88.

الشعراء، ويضفون عليها ألوانا من الضحك والفكاهة، لذلك لقي خروف العيد اهتماما كبيرا من قبل الشعراء فعددوا صفاته وتصوير عواطف الناس نحوه، واصفين لحمه وشحمه.

كما شاع في الأندلس حفل اعذار الأطفال وهي امتداد لما شاع في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، في عهد الحاجب المنصور بن أبي عامر، حيث ختن أولاده وختن معهم من أولاد أهل دولته خمسمائة صبي، ومن الضعفاء والفقراء عدد لا يحصى، ويتولى هذه العملية الحجام[1].

وأما أعظم الحفلات التي أقيمت في عصر الطوائف، فهي الوليمة التي أقامها المأمون بن ذي النون بقصره في طليطلة سنة 455 هـ احتفالا بختان حفيده يحي فقد كانت أكثر بذحا وجلالا وتبذيرا.

وهناك احتفالات موسمية خصت بها طبقة الفلاحين وارتبطت بالنشاط الزراعي، من بينها احتفال بفترة العصير في فصل الخريف، حيث يخرج أهل القرية إلى الحقول والأدوية المجاورة ويقضون عدة أيام وليال يستغلونها في جني العنب وعصره، كما يستغل بعضهم هذا الموسم للنزهة والفرجة، واستمر هذا الاحتفال حتى زمن ابن الخطيب[2].

وثمة موسم آخر يتم الاحتفال به وهو موسم صباغة الحرير، ففيه يخرج الأندلسيون لجمع القرمز، حيث يقيمون خيامهم في بطون الأودية والحقول ويصطحبون معهم آلات الغناء، ويقضون أوقاتهم في الرقص والبهجة[3].

2- الأعياد المسيحية:

إلى جانب الاحتفال بالأعياد الإسلامية والمواسم الفلاحية، شارك أهل الأندلس إخوانهم المسيحيين في أعيادهم، لأنهم جزء مهم ساهم في تشكيل المجتمع.

[1] – المقري: المصدر السابق، ج 02، ص 128.
[2] – المقري: المصدر السابق، ج 01، ص 118.
[3] – المقري: المصدر السابق، ج 01، ص 119.

وهذا ما يدل على قمة التسامح الذي اتبعه المسلمون نحو أهل الذمة[1]، ويمكن حصر الأعياد المسيحية فيما يلي:

أ- عيد النيروز:

هو أحد الأعياد الكبرى في الأندلس، وقد اقترن الاحتفال به بالطبيعة، ووجد اهتماما كبيرا من قبل الأندلسيين، حيث يقع في بداية السنة في أوائل يناير من كل عام، وهو من بين الأعياد التي احتلت مكانة رفيعة في نفوس الأندلسيين، وبلغ اعتزازهم به حدا عظيما، وكانوا يعتبرون الليلة السابقة لهذا العيد أنسب الأوقات للزواج، وقد جرت العادة أن يصنع الناس في هذا اليوم الحلوى في صورة مدائن ذات أشكال مستحسنة جميلة لتقديمها للضيوف في هذه المناسبة، وقد ألهمت هذه الحلوى وأشكالها قرائح الشعراء فتنافسوا في وصفها[2].

وكان من عادة الأندلس في هذه المناسبة شراء مواد غذائية مختلفة من فواكه ولحوم وتوابل وكذا مواد الزينة كالحناء والبخور، رغبة في إشاعة البهجة والسرور في نفوس أفراد الأسرة.

وفي عيد النيروز اعتاد الأغنياء من الناس وكذلك الوزراء على تقديم هدايا ثمينة إلى الملوك والأمراء تعبيرا عن الاحترام والتقدير، وقد أهدى الوزير ابن عمار للملك المعتمد بن عباد رداء من الصوف البحري، وهو نوع من الملابس النادرة وقال:

ولما رأيت الناس يحتفلون في إهداء يومك جئته من بابه
فبعثت نحو الشمس شبه آياتها وكسوت متن البحر بعض ثيابه

[1] – كمال السيد أبو مصطفى: مالقة الإسلامية في عصر دويلات الطوائف، ص 85.

[2] – من ذلك شعر أبو عمران موسى الطرياني، واصفا مدينة صنعت بالحلوى والعجين:

مدينة مسورة تحار فيها السحرة
لم تبنيها إلا يد عذراء أو مخدرة
بدت عروسا تجتلى من درمك مزعفره

أنظر المقري: المصدر السابق، ج 04، ص 63.

كما كان الناس يتهادون بعض الأبيات الشعرية فيما بينهم.

ب- عيد المهرجان:

ويسمى "العنصرة":[1] وللناس بمختلف طبقاتهم الاجتماعية عادات وتقاليد في هذا العيد، وربما هذا ما أدى بالطرطوشي إلى جعل هذا العيد من البدع، خاصة وأنهم يحرصون في هذه المناسبة على شراء المجبنات والإسفنج تشبها بالنصارى، وقد ظهر هذا العيد في أمثالهم، فصورت ما يقام فيه من احتفالات، كقولهم:" الكبش المصوف ما يكفز على العنصرة".

ومن الأعياد المسيحية الأخرى المحتفل بها في الوسط الأندلسي، نذكر الاحتفال بليلة العجوز، وهي ليلة آخر السنة الميلادية، وتتصل بمناسبة أخرى عرفت بخميس أبريل التي تميز بها الأشبيليون على الخصوص، فهي محلية لابد من الإشارة إليها، حيث جرت العادة عن الأشبيليون شراء المجبنات والإسفنج[2].

3- الأعياد اليهودية: أعياد اليهود كثيرة، نذكر منها البعض باعتبارهم جزء لا يتجزأ من التركيب الإثني من المجتمع الأندلسي، منها:

أ- عيد الفصح:

ويسمونه عيد الفطير، يكون في الخامس عشر من أبريل في كل عام، ويدوم سبعة أيام يأكلون فيها الفطير، وينظفون فيه بيوتهم من خبز الخمير، وذلك احتفالا بذكرى خلاصهم من فرعون وغرقه.

ب- عيد حوماريا:

[1] - هي شعلة نار يعملونها ليلة العنصرة ويقفزون حولها، (أنظر إبراهيم القادر بودشيش: المغرب والأندلس في عصر المرابطين- المجتمع، الذهنيات، الأولياء-، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، ط 02، تطوان، 2004، ص 92.)

[2] - إبراهيم القادري دشيش: المغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص ص 93 – 94.

يسميه النويري "صوماريا"، ويسمى عند الهنود بالكبور وهو عندهم الصوم الكبير، أما عقوبة من لم يصمه هو القتل في شريعة اليهود ومدة الصوم خمس وعشرون ساعة، ويزعمون أن الله يغفر لهم خطاياهم بهذا الصوم.

ت- **عيد الأسابيع:**

ويعرف بعيد الخطاب أو العنصره، ويحتفل به بعد عيد الفصح بسبعة أيام، وهي الأسابيع التي فرضت فيها الفرائض وكمل فيها الدين، حيث يصنعون في هذا العيد قطائف يتفننون في صنعها، ويجعلونها بدلا عن المن والسلوى الذي أنزل عليهم، ويقع هذا العيد في فصل الصيف، أي موسم الحصاد ويسمى بالإنجليزية " Pentecost " بالإضافة إلى أعياد أخرى كعيد المضلة وعيد الفوز.

يضاف إلى هذه الأعياد الإسلامية والمسيحية واليهودية المذكورة، بعض الاحتفالات والمهرجانات التي تميزت بها الأندلس، خاصة تلك التي تقام بمناسبة عرض عسكري، والذي يرافقه عرض حربي تكون فيه السفن والمراكب في أكمل زينة وأحسن منظر، حيث كان الملاحون بطبيعة تدريباتهم يستعرضون قوتهم بحركات رشيقة سريعة، ولعل الشعر الأندلسي قد حفل بوصفها، فهذا عبد الجليل بن وهبون المرسي يصف مهرجان أسطول الملك المعتمد بن عباد في حركته وزحفه قائلا:

يا حسنة يوم شهدت زفافها بنت الفضاء إلى الخليج الأزرق
ورقاء كانت أيكة فتصورت لك كيف شئت من الحمام أورق
رأت زئير الأسد وهي صوامت وزحفن زحف مراكب في مأزق

هذه بعض الأعياد والمهرجانات والمواسم التي كانت سائدة في المجتمع الأندلسي، حيث نجد أعياد الأندلس تمارس بالمفهوم الحضاري الواسع، وهي نوعان: أعياد أصيلة وأعياد مكتسبة، فالأصيلة هي الإسلامية كالفطر والأضحى فقط، وأما المكتسبة غير الإسلامية كالنيروز والفصح.

ث- الألبسة والأطعمة:

1- الألبسة:

إن الأزياء تعد شكلا ثقافيا يجسد رؤية الجماعة والفرد لمجموعة من القيم والمعايير الاجتماعية، ومن ثمة فإن وظيفة اللباس تكمن في إبراز اختلافات الامتيازات الاجتماعية والمهنية، كما يعبر عن درجة التحضر[1].

وقد ارتبطت الأزياء بصناعة النسيج في الأندلس، حيث يرجع الفضل الكبير إلى الأمير عبد الرحمن بن الحكم المعروف بالأوسط، حيث شهد وعهده إقبال أهل الأندلس على التأنق في الزي، والتماس مظاهر الأبهة والفخامة في ملابسهم، فأقيمت دور الطراز في كثير من المدن الأندلسية، واختصت كل منها بنوع من المنسوجات، ومن ذلك مدينة بسطة، وتدمير وأشبيلية وألمرية.

وصناعة الغزل والنسيج والحرير من الصناعات الرائجة في الأندلس وبخاصة صناعة الحرير، حيث قامت شهرة بعض المدن عليها، كمدينة جيان التي بها ثلاث آلاف قرية لتربية دور الحرير، وقد وصل عدد النساجين بقرطبة على سبيل المثال مائة وثلاثين ألف نساج.

ولهذا فالحديث عن الأزياء سوف يكون عاما أي ينطبق على مدن الأندلس ككل، ما عدا بعض الحالات، فبالنسبة لملابس الرجال نجد:

- العمائم:

[1] - إبراهيم القادري دشيش: المغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص 75.

كانت أكثر انتشارا في غرب الأندلس عكس شرقها الذي يكاد يخلو منها، حيث يقول المقري:" وأما زي أهل الأندلس الغالب عليهم ترك العمائم، لاسيما في شرق الأندلس، فإن أهل غربها لا تكاد ترى فيهم قاضيا ولا فقيها مشارا إليه إلا وهو بعمامة، وقد تسامحوا بشرقها في ذلك"[1]، ثم إن العمائم كانت اللباس الشائع للرأس لدى رؤساء البربر، أما أهل الأندلس فلا يميلون إلى تغطية الرأس بالعمائم، باستثناء أهل العلم من الفقهاء[2]، حتى أن أهل الأندلس عندما رأوا مشرقي بعمامة في بلادهم أظهروا تعجبا واستظرافا، وإن حاولوا تقليدها، فإن ذلك ليس من عوائدهم ولا أوضاعهم[3].

– القلانس والطيلسان والغفائر:

أولا: القلنسوة

هي ما يغطي الرأس من الوشي أو الصوف أو الفراء وكانت محببة لدى الأندلسيين وشاع استخدامها عند القضاة المفتين والملوك والوزراء، كالمعتمد بن عباد ووزيره ابن عمار، وكذا مبارك ومظفر[4].

ثانيا: الطيلسان

هو ثوب يوضع على الرأس وينسدل على الكتفين وانتشر بشكل واسع لدى الأندلسيين، حتى تنعت أشكاله، ويشبه القلنسوة ويغطى به أكثر الوجه ثم يدار طرفان منه تحت الحنك إلى أن يحيط بالعنق، وشاع لباسه في صلوات الجمعة والاحتفالات، وقد استخدمه عوام الناس وخواصهم فلبسه الأدباء والكتاب والقضاة وكطلاب العلم، وكان يوضع على رؤوس الأشياخ المعظمون[5].

[1] – المقري: المصدر السابق، ج 01، ص 222.

[2] – سحر السيد عبد العزيز سالم: ملابس الرجال في العصر الإسلامي، ص 254.

[3] – المقري: المصدر السابق، ج 03، ص 223.

[4] – سحر السيد عبد العزيز سالم: ملابس الرجال في العصر الإسلامي، ص 255.

[5] – المقري: المصدر السابق، ج 01، ص 223، سحر السيد عبد العزيز سالم: ملابس الرجال في العصر الإسلامي، ص ص 258-259.

ثالثا: الغفائر

مفرد غفار، وهي من ألبسة الرأس وتنسدل على الكتفين وقد طغى عليها اللون الأحمر والأخضر، وهي صوفية، بينما الصفراء كانت منحصرة في اليهود كتمييز لهم[1].

- المآزر والأقمصة:

الإزار لباس يغطي القسم الأدنى من البدن الوسط حتى منتصف الساقين ولعل انتشاره كان بغرناطة لميل أهلها إليه صيفا، وهو لباس مشترك بين الرجال والنساء وكن يلبسن الريط والحبرة فوق الإزار الذي يدور بأدنى البدن[2].

أما في فصل الشتاء نلاحظ انتشار الملابس الصوفية، خاصة في غرناطة التي يهوى أهلها هذا النوع من الألبسة، أما في فصل الصيف فكانوا يرتدون الملابس المختلفة من حريرية وقطنية وكتانية.

كما اشتهرت ألمرية بطرز الحرير، إذ وجد بها ثمانمائة طراز يعمل الحلل والديباج والسقلاطون الذي هو نوع من القماش ذو حواشي من الذهب كما شهدت الأندلس وبخاصة قرطبة انتشار الحرير المطرز وأثواب الديباج الآتية من بلاد الأعاجم، وكانت ترتديه الجواري الحسان.

كما لبس الأندلسيون في فصل الشتاء أقبية ثقيلة محشوة بالقطن أو حللا من أفرشة الخراف والأرانب، أما فيما يتعلق بكسوة الأقدام والسيقان، فكانت تتخذ الجوارب الصوفية الطويلة لكسوة الساق حتى أعلى الركبتين، ثم ينتعلونها نعالا من الحلفاء تعرف بالقرق.

[1] – المقري: المصدر السابق، ج 01، ص 223.

[2] – سحر السيد عبد العزيز سالم: ملابس الرجال في العصر الإسلامي، ص 259.

وقد استخدمت العامة الملابس الكتانية نظرا لرخصها ومتانتها، فأهل ألمرية كانوا يلبسون الموشاة والديباج وعرفوا أنواعا كثيرة من الثياب الفاخرة التي تنتجها المدينة.

ولا نعجب بعد هذا كله أن تكون الملابس على اختلاف أنماطها وألوانها ميدانا فسيحا استلهم قرائح الشعراء، من ذلك ما قاله الشاعر أبا محمد ابن السيد البطليوسي بممدوحه المترف الظافر بن ذي النون واصفا ملابسه الفاخرة:

ولم تر عيني مثله ولا ترى أنفس في نفسي وأبهى منظرا
ونسج قرقوبة ونسج تسترا خلت الربيع الطلق فيه تتورا[1]

- الأقمصة:

كانت بيضاء أو سوداء وتنسج من الكتان الرقيق، حيث نجد بعض النساء لا سيما الجواري يفضلن الأقمصة الرقيقة الملاصقة للبدن لإبراز مفاتن أجسامهن، ويذكر المقري أن جارية مشت بين يدي المعتمد بن عباد وعليها قميص لا يكاد الحاضرون يفرقون بينه وبين جسمها.[2]

وكان المعتمد بن عباد عند اقتحام المرابطين لأشبيلية في قصره المعروف بالمبارك خرج لمحاربتهم ليس عليه سوى قميص.

كما تعتبر السراويل من بين الألبسة المشتركة بين الرجال والنساء، وكلمة سروال هي تحريف لكلمة شلوار الفارسية التي تعني ثوبا فضفاضا يغطي أسفل البدن حتى القدمين، وكان من بين الألبسة المحببة لدى الأندلسيين، وتحتفظ اللغة الاسبانية حتى اليوم باسمه " Zaragüelles "، وهذه السراويل تمسك بشريط أو حزام[3].

[1] – المقري: المصدر السابق، ج 02، ص 287.
[2] – المقري: المصدر السابق، ج 04، ص 124.
[3] – سحر السيد عبد العزيز سالم: ملابس الرجال في العصر الإسلامي، ص 259.

أما ملابس النساء فإنها اتخذت أشكالا مختلفة في طريقة تفصيلها بحسب أجزاء الجسم، وأطلقت عليها بالتقريب الأسماء نفسها التي شاعت في المشرق سواء في ذلك ما يغطي الجزء الأعلى من البدن أو الأسفل منه، وعلى سبيل المثال فإن المرأة ترتدي في الأندلس الدرع والمرط على نحو ما يشير إليه ابن زيدون مفتونا بمحبوبته قائلا:

وفي الربرب الأنسى أحوى كناسه نواحي طميري لا الكثيب ولا السقط

غريب فنون الحسن يرتاح درعه متى ضاق ذرعا بالذي حازه المرط

والشيء الملفت للنظر في لون اللباس أن الأندلسيين اتخذوا من اللون الأبيض لون حزن، بخلاف أهل المشرق الذين اعتادوا لبس الأسود، وإذا كان اللون الأبيض يرمز للحزن فقد كان من الألوان المحببة لدى الأندلسيين، إذ يمثل الطهر والنقاء[1].

ومن الملابس الخارجية نجد الملحفة وهي ملاءة مبطنة تسمى المبطن وتكون ذات لون أصفر أو احمر، وتلبس على القميص أو مع الإزار بالإضافة إلى الأقبية وهي ذات أصول فارسية، وتعرف بالبرنس، وكانت منتشرة في الممالك البربرية على وجه الخصوص، وكذلك الجباب وهو لباس الرجال، يلبسها العوام والخواص على حد سواء.

2- الأطعمة:

إن الغذاء من أهم مطالب الحياة بصفته وألوانه وطرق إعداده وطبخه وكيفية تقديمه وتناوله، لأنه يعرفنا على وجه أساسي من وجه الحياة الاجتماعية الأندلسية، ففن الطبخ يعبر عن ثقافة طهي المجتمع لمأكولاته وغذائه ليثبت وجوده كفرد فاعل منتج.

لقد تنوعت الأطعمة بحسب البيئات والمستوى المادي للأفراد، أما بالنسبة للأمراء والخاصة، فإنها تأثرت بتطور أحوال الدولة، وبديهي أن تختلف الأطعمة حسب الشرائح الاجتماعية والمناطق[2]، ومن

[1] – سحر السيد عبد العزيز سالم: ملابس الرجال في العصر الإسلامي، ص 257.

[2] – إبراهيم القادري بودشيش: المغرب والأندلس في عهد المرابطين، ص 69 – 70.

ثمة فلا عجب أن نجد أطعمة خاصة بالطبقة الأرستقراطية التي ارتبطت بالثراء والمركز السياسي والنفوذ الاجتماعي.

وقد كان لزرياب، تأثيرا كبيرا على المطبخ الأندلسي، فقد أدخل العديد من ألوان الطعام المشرقية، ودعا إلى ثقافة المائدة وترتيب الأطعمة وعدم تقديمها دفعة واحدة.

ومن الأطعمة التي أدخلها: الهيلون والطقاوي، ويحسب له كذلك تعليمه أهل قرطبة أكثر طرائق الطبخ البغدادي، حيث يبدأ بأطباق الحساء ثم تتلوها مقدمات من اللحم ثم ألوان الطيور المتبلة بالبهارات، ثم تأتي أطباق الحلوى مثل الكاتو المصنوع من الجوز واللوز والعسل، ومعقود الفواكه المعطرة المحشوة بالفستق.

أما عن صنوف الطعام فهي كثيرة ومتنوعة المذاق، فالمجبنة كانت مفضلة في جميع أرجاء الأندلس، وكانت تصنع في طليطلة وأشبيلية وقرطبة[1]، كما انتشرت أنواعا عديدة من الحلوى التي كانت تقام عليها جلسات الأنس والطرب خاصة الفاخرة منها، وتصنع على أشكال عديدة، وتعرف باسم أذان القاضي طبق عيون البقر، وكانت منحصرة في الطبقة الأرستقراطية[2].

فبالنسبة لأدوات المطبخ الأندلسي، فقد شملت القدر، وهو على أحجام عديدة والفخار من الأنواع الأكثر شيوعا، ثم الفرن الذي يمكن اللجوء إليه لأسباب منها العوز إلى مساحة مناسبة في المطبخ، وربما يستخدم لخبز الخبز اليومي للأسرة، ثم يأتي الموقد والتنور.

وقد تفنن أهل الأندلس في صنع الكثير من ألوان الطعام المختلفة، وصارت موائدهم حافلة بالأنواع المتعددة من الأطعمة والحلوى وأصناف الفواكه والأشربة، كما هو الحال في غرناطة التي كانت

[1] – المقري: المصدر السابق، ج 04، ص 63.

[2] – المقري: المصدر السابق، ج 04، ص 138.

حافلة بشتى أنواع الفواكه والخضروات والكروم واللوز والأجاص، ولعل أصناف الأسماك واللحوم المنتشرة في أسواق الأندلس قد استفادت منها الموائد الأندلسية.

ثم أن اللحوم كانت حكرا على العائلات ذات الدخل الكبير، أما الطبقات الميسورة فقد كانت عاجزة عن ذلك، خاصة أيام الفتن والحروب، حتى أن بعضهم تسول اللحم من عائلات أرستقراطية، وفي الأسواق الأندلسية كان هناك مكان للجزارين، حيث يحرص الأندلسيين على شرائه بدقة فائقة، وتحت مراقبة المحتسب، لأن الغش هو أحد وسائل الباعة مثل خلط البائت مع الطري والمهزول مع السمين والمصران مع الكرش، ولحم العنز مع لحم الضأن.

وكانت معظم المأكولات تهيئ داخل البيوت مثل الزبزين وهو نوع من البركوكش عند الأندلسيين، ويخلط بالسمن والقديد والبصل، بالإضافة إلى السخينة وهي نوع من الحساء، وربما كانت منتشرة أكثر في الأسر البربرية في الأندلس، وتعرف باسم أسماس[1].

والملاحظ أن ربة البيت في الطبقة العامة والوسطى تقوم بإعداد الطعام بنفسها، بينما استخدمت الموسرات بعض الطاهيات المحترفات، أما في حالات الإعداد للولائم والمناسبات فكانوا يستخدمون طباخين متخصصين لهم حوانيت في الأسواق، وقد أمدنا السقي محتسب مالقة بمعلومات قيمة عن بعض الأطعمة التي كانت تعد في المطابخ وتباع في الأسواق منها المركاس أو المرقاس وكان يصنع من لحم الضأن وهريسة الشحم التي تعد من دقيق القمح، ثم الإسفنج الذي يصنع من السميد والبيض والخميرة والجوز والفستق والعسل.

هذا وقد شاع الترف بين الطبقة الأرستقراطية في المأكل والأبهة التي امتازت بها قصور ملوك الطوائف، ولكن هذا الإسراف في الطعام لم يكن موجودا في مطابخ العامة من الناس وخاصة الطبقات المعدمة التي لم تستطع توفير سعر الزيت للإنارة[2].

[1] – إبراهيم القادري بودشيش: المغرب والأندلس في عهد المرابطين، ص 72.

[2] – المقري: المصدر السابق، ج 03، ص 289.

بينما في الريف هناك إشارات قدمها لنا القاضي عياض عن بعض المأكولات المنتشرة في البادية كخبز الفطير، جبنة، لبن، كما كانوا يستهلكون البصل أيام فترة الحصاد لمقاومة الحر، وقد قدمت لنا كتب الطب الأندلسي مدى حرص أهل الأندلس على الاعتناء بالغذاء والصحة والنظافة، منها أن الطعام المحروق والطهي في الفخار مرات عديدة ينجم آثار سلبية على صحة الفرد، وكانوا يبتعدون عن الطهي في أواني النحاس لأنه يفسد المزاج، وركزت كتب الطب على ضرورة ممارسة الرياضة لفائدتها للجسم، فمن لا حركة لنفسه فهو أشبه بالبهائم منه للإنسان، وتمارس الرياضة بعد الطعام، وبعد خروج فضلات الجسم ولا ينبغي أن تستعمل على ضعف أو جوع مفرط لأن ذلك يضعف البدن.

إن ما نستنتجه هو أن الطعام الأندلسي مزيج بين التأثيرات المشرقية والبربرية والموروث الأندلسي القوطي، كما تبين لنا من خلال الأطعمة مدى ثقافة الأندلسي في طعامه وحرصه على تناول غذاء سليم وأكثر، وإن اختلفت باختلاف الأسر والطبقات والأحوال المادية التي تتحكم في نوعية الغذاء.

هـ – وسائل اللهو والطرب:

ما من شك فيه أن الأندلسيين اعتادوا على الاستمتاع بأوقات فراغهم بشتى وسائل الترفيه، فالطبيعة قد ساهمت بقسط كبير في خلق وإيجاد هذه الوسائل التي استغلها الأندلسي لتأسيس فلسفة للهو وإضفاء البشاشة والمرح على شخصيته[1].

إن الوسائل كثيرة ومختلفة في هذا المجال، ولذلك سنتكلم عن بعضها والذي كان أكثر انتشارا في الوسط الأندلسي منها:

– الخروج إلى الحدائق والمنتزهات:

قلنا بأن الطبيعة الأندلسية قد خلقت هذه الوسيلة نظرا للمعطيات الطبيعية التي تتوفر عليها، فشاطبة تميزت بالحسن وبمنتزهاتها منها البطحاء والغدير والعين الكبيرة، كما اشتهرت غرناطة بمنتزهاتها

[1] – إبراهيم القادري بودشيش: المغرب والأندلس في عهد المرابطين، ص 94.

كمنتزه حور مؤمل، حور الوداع، عين الدمع، السبيكة، نجد، يضاف إلى ذلك أنهارها وجناتها الخلابة، ولم تخل مرسية من الغابات والبساتين والنواعير، حيث استقطبت كل من يرغب في الفرجة والاستجمام، كما تعددت في بلنسية البساتين، حتى عرفت بمطيب الأندلس، وفيها البحيرة المشهورة كثيرة الضوء والرونق، يسبح فيها الجميع، وأهلها أميل الناس للراحات.

وأما أشبيلية فقد تميزت باعتدال هوائها وكريم تربتها وخضرتها الدائمة وعموما فالأندلس كما يقول البكري: " شامية في طيب هوائها يمانية في اعتدالها واستوائها هندية في عطرها وذكائها".

إذن فالأندلسيون قد حطموا أغلال الحياة المدنية وتخلصوا من متاعبها ولو مؤقتا بالخروج إلى الطبيعة طلبا للراحة والنزهة والاستمتاع بالحياة، فيقضون أوقاتهم بين الضلال وارفة ومياه جارية وخضرة متصلة وطيور مغردة ومناظر الرياحين والأزهار، وقد نقل لنا ذلك شعراء كثيرون، ففي بلنسية جسد الشاعر ابن سعيد الخير البلنسي بقوله:

لله دولاب يفيض بسلسل في دوحة قد أنعت أفنانا
قد طارحته بها الحمائم شجوها فتجيبه وترجع الألحانا

وقول ابن زقاق:

وأغيد طاف بالكؤوس ضحى وحثها والصباح قد ضحا
والروض أهدى لنا شقائقه وآسه العنبري قد نفحا

وقول ابن خفاجة:

سقاني وقد لاح الهلال عشية كما اعوج في درع الكمى ستان
ونمت أسرار الرياض خميلة لها الزهر ثغر والنسيم لسام

- **مجالس اللهو والطرب والشراب:**

لقد كانت هذه المجالس من الأمور المألوفة والمشاهد اليومية المتكررة في حياة الأندلسي، فكانوا شغوفين بها، حيث ولعوا بالطرب والغناء وسماع الإيقاع الموسيقي، وكانت تحيي حفلات هذه المجالس

مغنيات، وأكثرهن من الجواري مزودات بآلات الطرب، وهذا النوع من المجالس احتكرته الارستقراطية دون العامة، وكان أمراء الأندلس يعقدون هذه المجالس في ظاهر المدن أو في البساتين أو في القصور أو في دور الأثرياء[1].

ففي هذه المجالس يتم تناول بعض المأكولات التي خصصت لهذه الغاية وتكون ممزوجة برقصات على أنغام المزامير والدفوف، ويذكر ابن بسام في ذخيرته أن المأمون بن ذي النون عندما أقام حفلا أحضر فيه عددا من المغنيين وجميع آلات الطرب وبالغ في تأنيس الحاضرين بالنبيذ، الذي كان سيد هذه المجالس مغريا ندماءه ولا يشمان برقا إلا الكأس والزهر على حد تعبير ابن خاقان، فهذا ابن خفاجة يصف مجلسا من تلك المجالس في بلنسية، فيقول:

فكم يوم لهو قد أدرنا بأفقه نجوم كؤوس بين أقمار ندمان

وللقضب والأطيار ملهى بجزعة فما شئت من رقص على رجع الأكان[2]

وهذا يدل على أن بلنسية وما تحتويه من رياض ومنيات، كانت نقطة التقاء الإخوان والأصدقاء بين الأدواح والخمائل الخضرة لسماع المثاني والمثالب[3]، ومن مجالس الأنس بملقة مجلس يقام عند جداول مياه يستمتعون بخريره ورائحة الزهور وشرب الخمرة.

- **الإقبال على الصيد:**

كان الأمراء من هواة الصيد بالبزاة، حيث يدربون صقورهم وجوارحهم على الصيد في نواحي أشبونة وجبال شرق الأندلس وجزر البليار، فالأمراء كانوا أكثر ولعا بهواية الصيد، حيث نجد ابن طاهر حاكم مرسية يبعث إلى صاحبه ببلنسية المنصور عبد العزيز شواذ نقات، ليستخدمها في رحلات صيده في جبال بلنسية.

[1] – ابن حزم: طوق الحمامة، ص 40.

[2] – المقري: المصدر السابق، ج 02، ص 206.

[3] – السيد عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة، ج 02، ص 109–110.

و الصيد بالبزاة والجوارح يعرف "بالبيزرة"، وهي لفظة مشتقة من كلمة بازيار أي حامل الباز، وكانت بمثابة رياضة يشترك فيها الخاصة والعامة، وكان الباز يتوفر عند بعض الأندلسيين فقط، الذين يقومون بتربيته وتدريبه والعناية بشأنه، وكان معيارا من المعايير الاجتماعية، فمن يملكه له منزلة واحترام من المجتمع، وأعظم الجوارح على الإطلاق هم الشواهين، البزاة، الزرق، الصقور، الشذنقات، كما كان يستعمل في الصيد الكلاب المدربة وأشهرها كلاب السلوق اليمنية التي تستطيع أن تميز بين العنز والتيس في القطيع كله، وكانت تصيد مع الفهود الأرانب والثعالب والغزلان والظباء والبقر الوحشي، وكذا صيد الغارنيق جمع غرنوق وهو طائر مائي، ولع الناس بصيده حتى أن بعضهم من شدة ولعه بالغرانيق ذهب لصيدهم شتاء رغم خطورة ذلك، وقد صور الشاعر عبد الله بن الشمر ذلك، حيث يقول:

ليت شعري أمن جديد خلقنا أم نحتنا من صخرة صماء

كل عام في الصيف نحن غزاة والغرانيق غزونا في الشتاء

كما قاموا بصيد الأسماك والحيتان من خلال نزهاتهم النهرية والبحرية فساهمت مرتفعات مالقة في تهافت أهلها على عملية الصيد، خاصة الحيوانات والطيور والغزلان والأرانب البرية.

- الألعاب:

اشتهر المجتمع الأندلسي بممارسة ألعاب شتى للترويح عن النفس منها ما يستعمل فيها الجهد ومنها ما يستعمل فيها العقل، ولذلك سنختار بعض النماذج من هذه الألعاب التي كانت منتشرة في الأندلس، ومن بينها:

أ- لعبة الشطرنج:

كانت من الألعاب المفضلة لدى المسلمين والمسيحيين على حد السواء، ومعلوم أن سلاح اللعب فيها إعمال الفكر واستجماع البديهة، وقد أشرات بعض المصادر إلى انتشار لعبتي الشطرنج والنرد في أوساط الأندلسيين، فهذا ابن بسام يذكر أن الوزير الكاتب عبد الله بن عبد البر كاتب بني عباد أهدى إليه شطرنج من أحد أصدقائه فمدح سحرها وإعجابا بها.

ولعبة الشطرنج نقلت إلى الأندلس في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي بفضل زرياب، وبعض الذين نزحوا من العراق إلى الأندلس، ومن لهف وعشق الأندلسيين لهذه اللعبة أنهم يستغرقون أحيانا النهار كله وبعض الليل أمام رقعة الشطرنج غير مبالين بالطعام ولا غيره.

ولقد كان الشاعر أبو بكر بن عمار ماهرا في لعبة الشطرنج، حيث كانت سفرته في غاية الإتقان والإبداع، قلما نحد مثلها عند الملوك، وهذه اللعبة تعتمد على الذكاء والفطنة، فقد حكي من قدرات ابن عمار ودهائه أنه تمكن من رد ملك الروم الأذفونيش-ألفونسو السادس ملك قشتالة-عن أشبيلية وقرطبة حين قصدها بجيوش جرارة أرعبت المسلمين، وتعاهد الرجلان أنه في حالة خسارة ابن عمار يدخل الأذفونيش أراضي المسلمين وفي حالة انهزامه يرجع بجيوشه إلى بلاده، فانتصر ابن عمار عليه، وكفى الله شره[1].

وكان للشطرنج مجالس تعقد في كثير من الأحيان في المنازل أو القصور من ذلك أن أبا جعفر أحمد بن العباس كان مغرما بالشطرنج، حتى انه دعا إلى منزله خواص أصحابه للعب الشطرنج في مجلس أنيق في داره، محاطا بأطباق أنيقة ثم لاعبهم نهاره كله وبعض ليله دون أن يرفع رأسه.

وكان المحتسب في الأندلس يمنع لعب الشطرنج والنرد على سبيل القمار لأن ذلك من المحرمات، ويؤدي إلى لهو الناس عن إقامة فرائضهم.

ب- لعبة سباق الحمام:

كانت منتشرة بكثرة في الوسط الأرستقراطي وقد شغف بها ملوك الطوائف شغفا كبيرا، ويسمونه فن المطرات، حيث كان لتلك الطيور رموزا متعارف عليها، ولعل مساجلات ابن زيدون مع المعتمد بن عباد من بين النصوص والنماذج الأدبية التي تبرز الطيور وأصنافها، كما كان الحمام يستخدم في

[1] - عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص 178 – 180.

المراسلات الحربية، من ذلك أن ابن عباد قدم تباشير النصر في معركة الزلاقة إلى ولده الرشيد عن طريق الحمام[1].

ج- لعبة الصولجان والكرة:

تمارس هذه اللعبة بظرب الكرة بعصا من فوق ظهور الجياد، ويعطينا الشاعر عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن حزم (ت. 420 هـ) فكرة عن هذه اللعبة خلال وصفه للهلال في موضع متجه نحو كوكب الزهرة، قائلا:

لما رأيت الهلال منطـــويا في غرة الفجر قارن الزهـــرة
شبهته والعيان يشهد لي بصولجان أو فتى لضرب كرة[2]

و- الحمامات:

تعتبر الحمامات من بين المنشآت المدنية الهامة، والتي يحرص عليها الأندلسي، باعتبار أن عادة الاستحمام من العادات المتأصلة في المجتمع الأندلسي، ونظافة الأندلسيين يؤكدها المقري في نفحه، الذي يقول:" وأهل الأندلس أشد خلق الله اعتناء بنظافة ما يلبسون، وما يفرشون وغير ذلك مما يتعلق بهم، وفيهم من لا يكون عنده قوت يومه فيطويه صائما ويبتاع صابونا يغسل ثيابه".[3]

والحمام من أحسن ما انتهت إليه الحيل الإنسانية في حفظ الصحة واستعمال الزينة، ولكل بيت من بيوته طبيعة تناسب بعض طبائع الناس، ثم أنه يفعل في النفوس ما يفعله الخمر من السرور والإطناب، ولذلك نجد أكثر الناس يغنون في الحمام.

وكان الحمام مركزا للاجتماعات ومجالس الأنس واللهو والغناء، ولم يكن حكرا على الرجال، بل أن النساء يجدن في الذهاب غليه فرصة للفضفضة النفسية وتغيير الجو والتمتع بحرية نسبية، حيث

[1] – ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، د.ط، بيروت، د.ت، ص 118.
[2] – الضبي: بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، مطبعة مجريط، مؤسسة الخانجي، د.ط، 1884، ص 380.
[3] – المقري: المصدر السابق، ج 01، ص 223.

يحطمن فيه أغلال التقاليد ويؤكد أمريكو كاسترو على أن الحمامات كانت مباحة للجميع، فالنساء كن ألأنظف مما كن عليه أيام الاستحمام في الأنهار والمنازل.

و كانت صهاريج الحمامات مغطاة وغير مكشوفة وبعيد عن النجاسة باعتبارها موضع طهارة ولذلك خضعت الحمامات لمراقبة شديدة من طرف المحتسب، وكان الحمام الأندلسي يتألف بوجه عام من مدخل يؤدي إلى ثلاث أو أربع غرف مقببة، وتتصل ببعضها البعض عن طريق فتحات أو أبواب، وله ملحقات كالموقد والمرحاض، وكان الغرفة الأولى تسمى بيت المسلخ، وهي خاصة بخلع الثياب، ثم تليها غرفة باردة، ثم الغرفة الوسطى وتعتبر من أهم أجزاء الحمام، حيث نجد في أعلاها فتحات تدخل الضوء، وينتهي الحمام بالبيت الساخن ذو درجة الحرارة المعتبرة، وعلى جوانبها أحواض تصب فيها صنابير المياه الساخنة والباردة.

ويعمل في الحمام فئات كثيرة، منهم الحكاك والحجام، ولهم ألبسة خاصة ولم تكن هذه المهن حكرا على المسلمين، بل مارسها أهل الذمة من يهود ونصارى، وكان لا يسمح لهم بالتجول داخل الحمام إلا بسراويل بيضاء نظيفة وكان السقاؤون يحملون الماء على ظهورهم من السقايات إلى الحمامات وعند افتتاح أي حمام يعلن عن ذلك البراح في الأسواق والأماكن لإعلام الناس بمكانه، وإذا كان للحمام وظيفة صحية ونفسية فإن كان أحيانا مكانا للاغتيالات، حيث تخلص المعتضد من بعض أعدائه بخنقهم في الحمام.[1]

ي– الفكاهة:

غن الفكاهة وسيلة للترفيه عن النفس، وهي ظاهرة إنسانية بحتة، حيث يجد فيها الإنسان مجالا للتعبير عن فرحه، كما يجد فيها آخرون مجالا للتعبير عن قلقهم ومآسيهم أو للهروب من واقعهم وإنكارهم له.

[1] – ابن عذارى المراكشي: المصدر السابق، ج 03، ص 273.

وفي الأندلس كانت الفكاهة ظاهرة منتشرة، واشتهر بها أهلها كما يقول المقري:" دعابة وحلاوة في محاروتهم، وأجوبة بديهية مسكتة، والظرف فيهم والأدب بالغريزة حتى في صبيانهم ويهودهم، فضلا عن علمائهم وأكابرهم"[1].

لقد كانت الفكاهة إذن سمة بارزة اتصف بها المجتمع الأندلسي، فالبيئة الأندلسية والمعطيات الاجتماعية في عصر الطوائف قد جعلت من الفكاهة عنصرا هاما عند بعض الناس في التعبير عن القلق الاجتماعي وخلجات النفس.

كما أن البيئة الأندلسية قد وفرت فكاهيين مشهورين وهذا ما يؤكده المقري، أن الأندلس غنية بالمضحكين والفكاهيين ولهم شطارة في النوادر والتنكيتات وأنواع المضحكات ما تملأ الدواوين، كثرته تضحك الثكالى وتسلي المسلوب[2].

كما كانت روح المرح ورصد الفكاهة والرغبة في الضحك عنصرا مشتركا بين مختلف الفئات الاجتماعية، حتى أن الملوك كانوا يبحثون عن المضحكين، لذلك سنقدم بعض النماذج التي تجسد الظاهرة في الوسط الأندلسي على سبيل المثال لا الحصر، من ذلك: أن شيخا اشتهر بكثرة التندير والتهكم وكان من أهل أشبيلية، حيث حدثت قصة طريفة للمعتمد بن عباد مع هذا الشيخ، ففي أحد الأيام مر المعتمد مع وزيره ابن عمار على بيت هذا المنكت فقال المعتمد لوزيره:" تعالى نضرب هذا الشيخ الساقط الباب حتى نضحك معه، فضرب عليه الباب، فقال: من هو؟ فقال له ابن عباد: الإنسان يرغب أن توقد له هذه الفتيلة، فقال له: والله لو ضرب ابن عباد بابي في هذا الوقت ما فتحته، فقال: فإنني ابن عباد، فقال: مصفوع ألف صفعة، فضحك ابن عباد حتى سقط على الأرض وقال لوزيره: امض بنا قبل أن يتعدى القول الفعل".

[1] – المقري: المصدر السابق، ج 03، ص 381.

[2] – المقري: نفسه، ج 03، ص 156.

كما كانت اللحى الطويلة مثار تندر واستهزاء يتهكم بها المتهكمون لغرابة منظرها حيث قال أبو علي إدريس بن اليمان العبدري في لحية طويلة:

لو أنها دون السماء سحابة لم تخترقها دعوة المظلوم

ثم أن الأنوف الطويلة كانت كذلك محل تندر واستهزاء، وكان أحد الرجال يدعى الزهري ذو أنف طويل تهكموا عليه بهذين البيتين:

أنفك يا زهري في قبحه كأنه في صورة البوق

يقعد في البيت لحاجاته وأنفه يمضي إلى السوق

كما أن الفكاهة كانت تعبر كذلك ليس على الواقع الاجتماعي فحسب بل على الواقع السياسي الرديء، من ذلك الفكاهات التي شاعت عن هشام المعتد –إشاعة موته–حيث يذكر صاحب الذخيرة أنه عندما أعلن المعتضد بن عباد موت هشام، صارت الميتة الثالثة، فكم قتل؟ وكم مات؟ حيث قال بعضهم في بيت شعري:

ذاك الذي مات مرارا ودفن فانتفض الترب ومزق الكفن

ن– الأمثال:

يقول المبرد نقلا عن الميداني إن المثل مأخوذة من المثال، وهو قول سائر يشبه حال الثاني بالأول والأصل فيه التشبيه، والأمثال وليدة حياة الناس ثم تشيع في أفواههم جميعا، وقوله يتداولونه في المناسبات العامة والخاصة لما يشمل عليه من تجربة وعبرة، ومن خلال هذه الأمثال نستطيع أن نفهم الدرجة التي وصلت إليها المجتمعات وعمقها الحضاري، ونعرف كثيرا من أخلاقها وعاداتها، ولعل الأمثال التي جمعها الزجالي في كتابه "أمثال العوام" تعبر عن ذلك، لذلك سنتخذه أساسا لتحليل بعض النماذج من الأمثال ومغزاها الاجتماعي، لأن المجتمع الأندلسي مثل بأمثاله هذه الواقعة وعقلية وبيئة.

فالمجتمع الأندلسي كان يتنبأ بحالة الجو من خلال عادة متكررة لديهم والعلم الحديث أثبت صحة ذلك، كقولهم:" إذا رأيت الضباب أبشر بالطياب" والطياب هو الصحو، فكل ضباب يتبعه صحو،

وقولهم:" النحس النحيس الجبة تحت القميص" هذا المثل يضرب للتشاؤم، ذلك أن العادة في الجبة أنها تلبس فوق القميص ويتضح أنهم كانوا يتشاءمون من العكس ومن قلب الثياب وتحويلها من غير استسقاء.

وكذلك قد بينت بعض الأمثال صفة التعاون بين أفراد المجتمع والأسرة على عمل ما، كقولهم:" الناس بالناس والهراوة مع الفاس"، كما جسدت بعض أمثالهم مواسم الحصاد والتفاني في هذه العملية وحرص الفلاحين على الإسراع في عملية الحصاد، كقولهم:" المنجل إذا وقع ما يرتفع".

وبينت كذلك أمثالهم الحث على النهوض باكرا لطلب الرزق، وذم نوم الضحى ذلك أن النوم في غير محله يجلب الفقر والكسل، ومن ضيع صبحه ضيع رزقه، وهذا ما يظهر في قولهم:" إذا صبح ما يفلح".

س–العادات والتقاليد:

إن التركيبة البشرية الفسيفسائية التي شكلت المجتمع الأندلسي أدت إلى اختلاف مناحي حياتها الاجتماعية، وهذا ما يعطينا صورة عن العادات والتقاليد التي آمنت بها العناصر المشكلة للمجتمع الأندلسي، لذلك فمن الصعب أن نلم بجميعها نظرا لفقر المصادر التي بين أيدينا وصعوبة التوغل داخل المجتمع دون دليل ومن ثمة سنكتفي ببعض العادات التي مثلت الأنا الاجتماعي.

لعل أولى هذه العادات عادة النظافة والاهتمام بالمظهر، حيث يؤكد المقري أن غرناطة مثلا يبالغ أهلها في نظافة أبدانهم وثيابهم ويكثرون من الاستحمام حتى أن الذي لا يملك إلا قوت يومه يطويه صائما ويبتاع صابونا يغسل به ثيابه، ومن تخلى عن هذه العادة يعتبر شاذا عندهم[1].

[1] – المقري: المصدر السابق، ج 01، ص 220.

وفي شهر رمضان كانت لهم عادة جارية، خاصة في السحور، حيث يقوم المؤذن بإيقاظ الناس للإسحار، ثم يؤذن ويبتهل بالدعاء حتى مطلع الفجر، ولعل هذه العادة أحدثت أذى للناس مما جعلهم يقدمون شكاوى للقضاء للفصل فيها كقضية المؤذن أبا الربيع التي رفعت للقاضي ابن ذكوان.

ثم أن عادة التسول كانت من العادات المستقبحة عندهم والتي انتشرت بكثرة على الطرقات، حيث يستجدون الناس، مما يعطينا صورة واضحة عن ظاهرة الفقر التي مست فئات كثيرة من المجتمع الأندلسي، حيث يعلق المقري على هذه العادة فيقول:" وأما طريقة الفقراء ... التي تكسل عن الكد وتحوج الوجوه للطلب في الأسواق فمستقبحة عندهم إلى نهاية، وإذا رؤوا شخصا صحيحا قادرا على الخدمة يطلب سبوه وأهانوه، فضلا عن أن ى يتصدقوا عليه بالأندلس سائلا إلا أن يكون صاحب عذر"[1].

كما كانت عادة شرب الخمر بشكل واسع في الوسط الارستقراطي والعامي، حتى أن المعتمد بن عباد لم يتورع في معاقرة الخمرة حتى في أحلك اللحظات حين كان يستنجد بيوسف بن تاشفين من الخطر المسيحي، ثم أن المحتسب والشرطة كثيرا ما يمسكون بعض العوام حاملين لزجاجات الخمر، وربما يوعز سبب انتشار هذه العادة إلى الطبيعة الأندلسية، فمثلا غرناطة اشتهرت بالعنب وهذا ما ساعد على انتشار العادة في الأوساط الاجتماعية، وربما ليست بباهظة الثمن لتوفر المادة الأولية.

وكانت النساء بعد انتهاء شغلهن يتابعن ما يجري في الطريق وذلك بالوقوف على أبواب منازلهن في الأزقة مكشوفات الوجه، وهذا ما أدى إلى منع هذه العادة ومحاربتها من طرف المحتسب، لما فيها من الكشف والاستتار وهذا ما يؤكده ابن حزم في طوق الحمامة أن النساء يتابعن مشهد الشارع من أماكن خاصة مثل الشراجيب لمشاهدة الرائحين والغادين[2].

[1] – المقري: نفسه، ج 01، ص 220.

[2] – ابن حزم: طوق الحمامة، ص 33.

كما تسلى الأندلسيون بألعاب وصارت عندهم عادة، كاللعب بالمقارع والعصي ولعب اللطمة التي كانت تمارس بين الشبان بالرغم من نهي المحتسب عن ممارستها، لأن ذلك ينذر بالنفاق والهرج، كما وجدت الألعاب البهلوانية والسحرية التي كانت تمارس في أماكن خاصة، حيث يجتمع الناس ليشاهدوا تلك الحركات[1].

وهناك عادة انفردت بها الأندلس عن باقي الأقاليم الإسلامية، وهي أنهم يختصون بارتداء الثياب البيضاء في الحزن والحداد، وهذه عادة أهل الأندلس وفي ذلك يقول الشاعر الحضري:

إذا كان البياض لباس حزن بأندلس فذاك من الصواب

ألم تري لبست بياض شيبي لأني قد حزت على الشباب[2]

وهذا بخلاف أهل المشرق الذين يميلون إلى الأسود، فكانت الأندلس إذن تتخذ من اللون الأبيض رمزا للحزن، فما إن توفي الخليفة عبد الرحمن الناصر حتى خرج الفتيان الصقالبة وعليهم ألبسة بيضاء، وهناك من أكد هذه الظاهرة كقول أحد الشعراء:

ألا يا أهل أندلس فطنتم بلطفكم إلى أمر عجيب

لبستم في مأتمكم بياضا فجئتم منه في زي غريب

صدقتم فالبياض لباس حزن ولا حزن أشد من المشيب[3]

ومكن عاداتهم كذلك إهداء الزهور والورود إلى الأصدقاء وقت الجني ومهاداتهم في المناسبات وتبادل الزيارات، مما بين لنا الترابط الاجتماعي بين الأفراد والأسر والتطلع إلى القيم النبيلة، كما أن النساء كن يخرجن ويتبعن الجنائز، وكان الذهاب إلى المقابر عند الشعور بانقباض النفس وذلك للعظة والاعتبار كما هو الحال في مالقة مثلا[4].

[1] – المقري: المصدر السابق، ج 03، ص 263.

[2] – المقري: نفسه، ج 04، ص 109.

[3] – سحر السيد عبد العزيز سالم: ملابس الرجال في العصر الإسلامي، ص 07.

[4] – كمال السيد أبو مصطفى: مالقة الإسلامية في عصر دويلات الطوائف، ص 102.

ش- مظاهر الفساد في المجتمع:

يلح ابن خلدون على ضرورة التمسك بالأخلاق في مسألة البناء الاجتماعي، باعتبارها تحقق الديمومة والاستمرارية للمجتمع، فإذا خرج المجتمع عن ضوابطه فهي بداية نحو الفساد السقوط والفوضى الاجتماعية[1].

لذلك فلا نعجب أن الأندلسيين رغم عمليات البناء الاجتماعي الكبير إلا أنه حال عن ضوابطه الأخلاقية، فحدث انفصال بين السنن الاجتماعية والأخلاقيات والأحكام الشرعية الضابطة، فانتشرت بذلك مظاهر سيئة ميزت المجتمع الأندلسي في عصر الطوائف الذي كان مناخا ملائما لبروز ظاهرة الفساد ولذلك سنختار بعض هذه الظواهر بالتحليل والمناقشة.

لقد أشارت كتب الحسبة وبعض الفتاوى الأندلسية إلى بعض الرذائل الخلقية، وعناصر من أهل الفساد التي كانت منتشرة في أغلب المدن الأندلسية، من ذلك أن بعض النسوة كن يحترفن البغاء ويطلق عليهن الخراجيات أو نساء دور الخراج، وكن ذوات سمعة سيئة، يسكن عادة في الفنادق ويمارسن البغاء.

ثم إن معاكسة النساء في الشوارع من طرف بعض الفئات الشبانية الطائشة كانت منتشرة في المجتمع، خاصة وأن معطيات المعاكسة متوفرة في الشارع الأندلسي، ونعطي مثالا عن حي العطارين في قرطبة والذي كان مجمعا للنساء يقظين حاجاتهن من عطور وزيوت وصابون، حيث نرى معجبين بالنساء يتبعنهن بالسير خلفهن، وكانت بعض النساء تعتبر هذا فضيحة، حيث تضطر للكلام مع الشاب وإقناعه بعدم تتبع خطاها خوفا من أقاربها[2].

[1] – ابن خلدون: المقدمة، دار الكتاب اللبناني، ط 03، بيروت، 1967، ص 299.

[2] – ابن حزم: طوق الحمامة، ص 23.

ولعل أيام الجمع والأعياد من أهم المناسبات والأوقات التي تستفحل فيها الظاهرة، حيث ينهى المحتسب ألا يترك الشبان أيام العيد يجلسون في الطرقات لاعتراض النساء ومراودتهن خاصة أثناء زيارة القبور والازدحام في الطرقات.

كما حفلت كذلك الشوارع والأسواق ببعض المخنثين الذين يقلدون النساء في ملابسهن، ويطلق عليهم "القطماء" ومفرده القطيم، ويورد ابن سعيد قصة مفادها أن أحد القطماء يترك بابه مفتوحا حتى إذا دخل لص مسكه وطلب منه ممارسة الفاحشة عليه مقابل إخلاء سبيله.

إنها صورة لنماذج أخرى في المجتمع، حيث صار القطيم مضرب الأمثال الشعبية عندهم، كقول العامة:" القطم فارض الصقالبة" وقالوا أيضا:" أمشى من قطيم".

كذلك وجدت في المجتمع الأندلسي ظاهرة السرقة التي كانت من نتائج تردي الوضع الاجتماعي، حيث كانت منتشرة في البادية والمدينة على حد سواء وأهم ما يميز السارق في الأندلس حنكته ودهائه المدهش في طرق السرقة، وربما أن زوجة السارق تساعد زوجها في هذه المهمة، وهذه حالة شاذة نجد فيها المتزوج سارقا، لأن السراق في الأندلس من العزاب[1].

ولعل من أغرب السرقات التي يتعجب لها العقل والتي حدثت في المجتمع الأندلسي هي سرقة الأكفان بعد دفن الميت، فالزجالي يورد المثل والقصة ويربط هذه السرقة بالفقر المتفشي لدى بعض العائلات، ونحن لا نثبت ولا ننفي السرقة الظاهرة، مما يجعلنا أمام أسطورة، إذ لا يعقل أن يقدم شخص على نزع كفن ميت بهذه الوحشية، وهل هناك ندرة للكفن؟ أم أن قيمته وقماشه كان من الأنواع باهظة الثمن؟

كما شهدت الشوارع انتشارا للأوساخ خاصة فضلات الأزبال والجيف فالمحتسب ينهى عن غريبة القمح في السواق، وهذا ما يعطي صورة عن اللامبالاة والتهور.

[1] – المقري: المصدر السابق، ج 04، ص 128.

كما أن المدينة شهدت نزوحا من البادية، إذ صار مشهد الشارع من هؤلاء البدو شاذا، خاصة وأنهم يتميزون بشعور طويلة، وهي علامة شر كما يقول ابن عبدون.

ويقدم لنا أبو بكر الطرطوشي بدعا كثيرة أدت إلى فساد المجتمع كالإنذار للعرس والجنازة للمباهاة والتفاخر وكثرة الناس، وكذلك الإنشاد ورفع الصوت عند حمل الجنازة، ومنافستهم في الأضحية للافتخار من أجل إقامة الدنيا وليس طلبا للسنة.

ولعل من بين الصفات المذمومة لدى المجتمع الأندلسي والتي كانت منتشرة الجلوس على الطرقات وتتبع عورات الناس، خاصة النساء اللواتي يخرجن من الحمام.

هذه بعض مظاهر الفساد التي كانت مستشرية في المجتمع الأندلسي، والتي بينت مدى تفشي التعفن الاجتماعي والأخلاقي، والذي كان نتاجا لإفرازات النظام السياسي للطوائف الذي شجع في بعض الأحيان هذه الظواهر، فكيف لا تكون كذلك وملوك الطوائف كانوا من أصحاب اللذة والتباهي والتبذير والإسراف والانعزال عن المجتمع.

خاتمة

إن الأوضـاع العالمية المعاصـرة بما فيها من تيارات وأفكار تجعل إعادة قراءة حضـارة الأندلس وثقافتها واقتراح تأويلات جديدة ملائمة ضـرورية ووجيهة لإلقاء مزيد من الأضـواء على مظاهر التسامح فيها؛ لتدحض أقاويل المغرضين على الإسلام، وهذا ما بدا أن الندوة تسعى للوصول إليه؛ إذ جاءت كلمات المشـاركين الأجانب قبل المشـاركين العرب موضـوعية وأمينة لما عرف عن التواجد الإسلامي بالأندلس، وهي شهادة من أهل الدار أثبتوا من خلالها سموّ الحضارة الأندلسية من جهة، ومحاولة الغرب طمس وتشويه هذه الحضارة من جهة أخرى.

كما تتحدث الدكتورة "ثيليا ديل مورال مولينا" (إسـبانيا) عن رفضـها مع مجموعة من المثقفين والمفكرين والفنانين الأسبان للاحتفال الذي يقيمه الجيش والكنيسة بمدينة غرناطة يوم الثاني من يناير لكل سنة، وهو تاريخ الاستيلاء على غرناطة سنة 1492؛ حيث يجسد هذا الاحتفال أحد المظاهر التي تتجلى من خلالها الرغبة في اجتثاث الثقافة العربية من غرناطة لصـالح الثقافة الإسـبانية.. تقول الدكتورة ثيليا في هذا الموضوع: "بصفتي عضوًا في "مجموعة بيان 2 يناير" الصادر عام 1995 الذي نادى بتغيير طبيعة الاحتفال، وجعله يرمي إلى التصـالح والتسـامح بين الثقافات، وبصـفتي مسـتعربة ومحبة للثقافة العربية؛ أريد من خلال هذه المداخلة القيام بدراسة التطور الذي عرفته ظاهرة احتفالات الاستيلاء على غرناطة منذ نشوئها في نهاية القرن الخامس، وفي نفس الوقت أريد التوقف عند النقاش الذي ولده هذا الاحتفال في الوقت الحاضـر، مبينة ما قد يثيره الاحتفاظ به من حسـاسـيات، خصوصا مع تزايد عدد المهاجرين الوافدين على إسبانيا من شمال إفريقيا، وكذا مع تزايد عدد معتنقي الإسلام من الأسبان الذين يقيم عدد مهم منهم في غرناطة".

كما تعتبر دراسة المستعربين في الأندلس خلال عصري المرابطين والموحدين من أهم العناصر التي عملت على نقل حضارة الأندلس وثقافتها إلى أوربا وساهمت مساهمة فعالة في حوار الثقافات بين الغرب الإسلامي والغرب المسيحي.

إن دراسة هذا الموضوع هو من شأنه أن يفتح أبوابا لمعرفة التراثين الإسباني والعربي الإسلامي للأندلس.

تعتبر الأندلس في عهد المسلمين حضارة متألقة وهمزة وصل حضارية.

معاملة المسلمين لرعاياهم من النصارى واليهود معاملة حسنة قائمة على العدل والتسامح، فضمنوا لهم تنظيماتهم الدينية والإدارية وإقامة شعائرهم في أماكن العبادة المحفوظة لديهم.

السماح لهم بإقامة أعيادهم الرسمية ومناسباتهم الدينية من دون مضايقات، وتقبل المسلمين لذلك بمشاركتهم إياهم تلك الأفراح وحضور احتفالاتهم، وبالرغم من ذلك تجاوزت اليهود في عهد ملوك الطوائف حدودهم، ولم يلتزموا بشروط عقد الذمة، فتسلطوا على المسلمين، وسخروا من دينهم، وتآمروا عليهم حتى على الحكام الذين قربوهم، وكانت النتيجة تعاسة على كل من المسلمين واليهود، حيث عانى المسلمون من ظلم وتسلط اليهود على أنهم يعيشون في دار الإسلام، وتحت حكم المسلمين، وعانى الحاكم من مؤامرات اليهود عليهم، وعانى اليهود كذلك من ردود فعل عنيفة ضدهم أدت في غرناطة غلى تشردهم وقتل عدد كبير منهم.

سمح المسلمون لليهود الذين حصلوا على مناصب مهمة في بعض العهود في الأندلس، بالإفادة من مناصبهم في خدمة اليهود داخل وخارج الأندلس.

لم يقدر يهود الأندلس إحسان المسلمين إليهم، وكانوا يشاركون النصارى الإسبان في التنكيل بمسلمي المدن الأندلسية المحتلة، ويدعمونهم بالمال في حربهم ضد مسلمي الأندلس، ويشاركون في القتال معهم في بعض الأحيان.

كان لمسلمي الأندلس علاقات طبيعية باليهود، وقد أحسنوا إليهم وأنصفوهم بالرغم من علمهم بسوء طبائعهم، وشدة عدائهم للمسلمين، وذلك لأن دينهم يأمرهم بالإحسان إلى اليهود عندما يكونوا تحت حكمهم وفي ذمتهم.

كشف الحوار الديني في الأندلس عن جانب مهم من جوانب الحياة الدينية والاجتماعية، التي كانت قائمة بين المسلمين ورعاياهم من النصارى واليهود، واطلاع مختلف الأطراف على عقائد غيرها بما ينفي التعصب والانغلاق الديني.

إن سقوط الأندلس يشكل مأساة كبرى، لأن سقوطها لم يكن سقوط دولة، وإنما سقوط حضارة كان يمكن لها أن تكون نقطة انطلاق لتمدين العالم في تلك الحقبة، كما أن سقوطها قلع شعباً مسلماً من جذوره وعرَّضه للضياع الكامل، ومن هنا تأتي فرادة النكبة التي حلت بالإسلام والمسلمين في الأندلس ومن الأسباب التي أدت إلى سقوط الأندلس ما يلي:

1. أولا الرضى بالخضوع والذل تحت حكم النصارى؛ لأن بعض المسلمين بقوا تحت حكم النصارى، وهم المدجنون، ولم يستمعوا إلى قول الرسول {صلى الله عليه وسلّم} : أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين) رواه الترمذي وأبو داود وسنده، وهو حديث حسن .

2. عدم الاستقرار السياسي، من الأسباب عدم الاستقرار السياسي وكثرة الفتن والمؤامرات، ومثال على ذلك أن مملكة غرناطة في خلال سنوات محدودة -أيها الأحباب -حكمها قرابة ثلاثين حاكما، ثلاثين حاكما، حكمها، اضطراب، بعضهم لم يحكم إلا عدة أشهر، وبعضهم عدة سنوات، وبعضهم حكم سنوات معدودة، الاضطراب السياسي يؤدى إلى النهاية المدمرة كما حدث .

3. آخر هذه الأسباب: تقديم المصالح الشخصية على مصالح المسلمين، وغلبة الأنانية السبب جوهري، سبب مهم، أنني ألحظ في بلاد المسلمين (الآن) من غلبت عليهم مصالحهم الشخصية، تأتيه، وتحدثه عن واقع المسلمين، تحدثه عن المآسي، تحدثه عن الفواجع، ولا يتحرك!! يفكر في وظيفته، يفكر في راتبه، يفكر في مصلحته لو أتي في دنياه؛ لأقام الدنيا، ولم يقعدها، أما في أمور المسلمين، فلا، إن أحسن أحواله أن يسترجع بل بعضهم يخذل، أقول :هذا ما حل بالأندلس، أنهم قدموا مصالحهم الشخصية على مصالح المسلمين وغلبة الأنانية وحب الذات، فسقطت الأندلس.

4. دور العلماء: من أسباب سقوط الأندلس، عدم قيام بعض العلماء بواجبهم، ومع ذلك فإننا نجد أن هناك من قام بواجبه والعلماء هم سراج الأمة.

وختاما فإني أحمد الله عز وجل كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، الذي شرح صدري للبحث في هذا الموضوع، ومنحني القدرة على خوض غماره، ويسر لي كل من أعانني على إخراجه بهذه الصورة، وأسأله سبحانه أن يجعل كل ما بذلته فيه جهادا في سبيله، أجده في ميزان حسناتي يوم القيامة.

والفضل لله وحده في كل صواب وتوفيق وخير جاء به البحث، وأما الخطأ والنسيان، فمن نفسي، ومن الشيطان، وأستغفر الله وأتوب إليه.

وأساله سبحانه أن يغفر لي ذنبي كله، دقه وجله، علانيته وسره.

وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وآخر دعوانا الحمد لله رب العالمين.

قائمة المصادر والمراجع

أولا: المصادر

1. ابن الأبار، محمد بن الله القضاعي، الحلة السيراء، جـ1، تحقيق: حسين مؤنس، (القاهرة، ط، 1963).

2. ابن حيان القرطبي، أبو مروان، المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تحقيق: عبد الرحمن علي الحجي، (بيروت، دار الثقافة، ط1، 1965 م).

3. ابن خلدون، المقدِّمة، تاريخ العلامة ابن خلدون، كتابة العبر وديوان المبتدأ والخبر، (بيروت، ط3، 1967م)، م1.

4. ابن سعيد الأندلسي، اختصار القدح المعلَّى.

5. ابن سعيد الأندلسي، المغرب في حلي المغرب، ج 01.

6. ابن سعيد الأندلسي، علي بن موسى، الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة، تحقيق: إبراهيم الأبياري، (القاهرة، دار المعارف، ط2، د.ت).

7. ابن سهل، أبو الأصبغ عيسى، الأحكام الكبرى، استخرجها وحققها ونشرها: محمد عبد الوهاب خلاف، (القاهرة، المركز العربي للدول والإعلام، 1410هـ–1980م).

8. ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، قسم1.

9. ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، قسم 01.

10. ابن كثير، أبي الفداء إسماعيل، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، جـ3، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، 1385هـ-1965م).

11. ابن كثير، عماد الدين إسماعيل، مختصر تفسير ابن كثير، م1، اختصار وتحقيق: محمد علي الصابوني، (بيروت، دار القرآن الكريم، 1402هـ–1981م).

أبو داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق الأزدي السجستاني، سنن أبي داود، جـ2، (مصر، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط1، 1371هـ-1952م).

12. الإحاطة في أخبار غرناطة، م1، ق1، تحقيق: محمد عبد الله عنان، (القاهرة، الشركة المصرية للطباعة والنشر، 1393هـ-1973م).

13. البكري، المسالك والممالك، "الجزء الخاص بالأندلس"، (هامش المحقق).

14. الحميري، محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، (القاهرة، مؤسسة ناصر للثقافة، ط2، 1980م).

15. الزركشي، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم، تاريخ الدولتين الموحدين والحفصية، تحقيق وتعليق: محمد ماضورة، (تونس، ط2، 1966م).

16. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، الجامع الصغير من حديث البشير النذير، جـ2، (مصر، مطبعة الحلبي البابي، ط4، 1373هـ).

17. القلقشندي، أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، جـ5، (مصر، المؤسسة المصرية العامة، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية، د.ت).

18. مجهول، أخبار مجموعة في فتح الأندلس، تحقيق: إبراهيم الأبياري، (القاهرة، دار الكتاب المصري، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ط1، 1401هـ1981م).

19. المقري، أحمد بن محمد، فتح الطيب من غصـــن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحســـان عباس، م1، (بيروت، دار صادر، 1408هـ-1988م).

20. الونشريسي، المعيار المعرب، ج2.

ثانيا: المراجع

- **الكتب:**

1. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جـــ1، (بيروت، دار العلم للملايين، بغداد، مكتبة النهضة، ط2، 1976م).

2. رجب محمد عبد الحليم، العلاقات بين الأندلس الإسلامية واسبانيا النصرانية.

3. الزاوي، الطاهر أحمد، ترتيب القاموس المحيط، جـــ2، مادة: "درنك"، (دار الفكر، ط3، د.ت).

4. سحر السيد عبد العزيز سالم، الجوانب الإيجابية والسلبية في الزواج المختلط في الأندلس، ندوة الغرب الإسلامي والغرب المسيحي خلال القرون الوسطى، تنسيق محمد حمام، جامعة محمد الخامس، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ط 01، 1995م.

5. سرور، محمد شكري، نظام الزواج في الشرائع اليهودية والمسيحية، (القاهرة، دار الفكر العربي، 1978-1979م).

6. عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة، دار النهضة العربية والنشر، بيروت، 1981م.

7. عبد المجيد، محمد بحر، اليهود في الأندلس، (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، دار الكتاب العربي، 1970م).

8. محمد بحر، اليهود في الأندلس.

9. محمد عبد الله عنان، دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، القاهرة 1960.

10. مؤنس، حسين، فجر الأندلس، (القاهرة، ط1، 1959م).

11. هوبكنز، ج.ف.ب، النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى، ترجمة: أمين توفيق، (ليبيا، تونس، الدار العربية للكتابة، 1980م).

- **المجلات:**

1. أحمد شحلان، مكونات المجتمع الأندلسي، مجلة التاريخ العربي، الرباط، المغرب، العدد 01، 1997م.

ملخص الدراسة

ملخص:

تعتبر حركة الاستعراب الاسبانية من أقدم أنواع الاستشراف في الغرب كنتيجة طبيعة حكم المسلمين الطويل لإسبانيا وكانت دراسات المستعربين الاسبان للمواضيع العربية أكثر عمقا وتأثرا من دراسات المستشرقين الغربيين للعاملين العربي والإسلامي.

لهذا نرى الكثير منهم سـخروا وقتهم لتعلم اللغة العربية من أجل أن يتاح لهم التعرف جيدا على حضارة العرب فثي إسبانيا وعلى تاريخ الإسلام.

ويأتي في مقدمة هؤلاء المستعربين "أميليو غارثيا غوميز" الذي لعب كان له دورا هاما في التعريف بالحضارة العربية الإسلامية في الأندلس.

ولأهمية هذا الموضوع في إبراز دور فئة غير مسلمة في الأندلس فقد اخترت لهذه الدراسة عنوانا ورسمته بما يلي:

"المستعربون في الاندلس خلال عصري المرابطين والموحدين"

Abstract :

The Spanish Arabization movement is considered one of the oldest types of outlook in the West, as a result of the nature of the long Muslim rule of Spain.

That is why we see many of them devoted their time to learning the Arabic language in order to allow them to get acquainted well with the civilization of the Arabs in Spain and the history of Islam.

At the forefront of these Arabists is Emilio Garcia Gomez, who played an important role in introducing the Arab-Islamic civilization in Andalusia.

Because of the importance of this topic in highlighting the role of a non-Muslim class in Andalusia, I chose a title for this study and drew it as follows:

The Arabists in Andalusia during the Almoravid and Almohad eras.

فهرس

المحتويات

فهرس المحتويات

العنوان	الصفحة
كلمة شكر	
إهداء	
مقدمة	أ
الفصل الأول: المستعربون في الأندلس خلال عصري المرابطين والموحدين	
المبحث الأول: المستعربون في الأندلس	**10**
المطلب الأول: تعريف المستعربين لغة	**11**
المطلب الثاني: تعريف المستعربين اصطلاحا	**19**
المطلب الثالث: التركيبة السكانية للأندلس	**29**
الفصل الثاني: الأحوال الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في الأندلس	
المبحث الأول: المستعربون في الأندلس	**55**
المطلب الأول: تعريف المستعربين لغة	**56**
المطلب الثاني: تعريف المستعربين اصطلاحا	**59**
المطلب الثالث: ظهور المستعربين	**60**
الفصل الثالث: اليهود في الأندلس	
المبحث الأول: دورهم السياسي والفكري	**63**
المطلب الأول: دورهم السياسي	**63**
المطلب الثاني: دورهم الفكري	**66**
الفصل الرابع: موقف مستعربي الأندلس من الحكم الإسلامي وسياسة حركة الاسترداد النصرانية وانعكاساتها على المستعربين	
المبحث الأول: دورهم الاقتصادي والاجتماعي	**97**
المطلب الأول: دورهم الاقتصادي	**98**
المطلب الثاني: دورهم الاجتماعي	**104**
خاتمة	**136**

قائمة المصادر والمراجع	**142**
ملخص الدراسة	**147**
فهرس المحتويات	**150**